

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها شبكة الأزهر

في كل شهر عربي

المجلد الحادي عشر

الحرم سنة ١٣٥٩

الجزء الأول

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فوزي وحيد

الاشتراكات عمدة سنة

الإدارة

داخل القطر ٢٠٠

ميدان الأزهر

طلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠

تليفون : ٨٤٣٣٢

خارج القطر ٣٠٠

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نعم الجزء الواحد ٢٠ ملياً داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤٠)



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السنة الحادية عشرة لمجلة الأزهر

الحمد لله الذي جعل للحق أعلاما تدل عليه ، وسخر له السنة من خلقه تهدي إليه .
والصلاة والسلام على المثل الأكل للفطرة الإلهية ، والمظهر الأجل لجميع الكمالات الخلقية ،
عند خاتم رسله الأكرمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .
أما بعد : فإنا نفتتح بهذا العدد المجلد الحادي عشر لمجلة الأزهر ، راجين الحق جل وعز
أن يمدنا من عونه بمثل ما أمدنا به في المجلدات السابقة . فإشكنا قد أحسننا في القيام بما أسند
إلينا ، فاعلم يرجع ذلك الى إمداده وتوفيقه ، وإشكنا نعيد قراءنا بالثابرة على عملنا ، وبالذؤوب
على زيادة تحصيله بمسئنف البحوث ، ومستطرف الموضوعات ، فاعلم نفعل ذلك استنادا الى
فضله ، واعتمادا على إحسانه .

وإنا وجميع من يعاوننا من أجلاء العلماء ، وكرام الكتبيين ، نجدد عهدنا لحضرات
القارئین ببذل الوسع في الاضطلاع بما نديناله من إبلاغ رسالة الأزهر الى العالم الاسلامي
كافة ، وخدمة أصول هذا الدين بما يصل اليه جهد العلم من التذليل والتدعيم ، ودحض
الشبهات التي يثيرها خصومه أينما كانوا ، ونحت أي مظهر ظهورا .

ونحن إذا ذكرنا الأزهر ، وجب علينا أن نتوه بما لقيه ويلقاه هذا المعهد التاريخي
أفخم من رعاية الأسرة العلوية وحمايتها ، وخاصة من فرعي دوحنها الجليلين : المغفور له الملك
فؤاد ، ونجله حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، الذي أحيا سيرة السلف الأولين بما جرى عليه
من التقاليد الصالحة ، والسنن القيمة . حفظ الله وجوده عزا الدنيا والدين ، وأمنع بفضائله
وكمالته المسلمين .

ولا بد من إلمامة في هذا الوطن بما يبذله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ
محمد مصطفى المراغي شيخه الأكبر ، فإنه بما يقوم به فيه من إصلاح وطيد ، وما يستنبته
في بيئته من غراس طيب ، يعدّه لدور انتقال يصبح معه أفخم في الاعين مظهرا ، وأعم
في تمثيل رسالة الاسلام أثرا .

وإنه ليسرنا أن نفتتح عدد هذه السنة بدرس ديني لفضيلته ألقاه في رمضان في حضرة
صاحب الجلالة الملك المعظم ، وفي حشد من رجال دولته ، وهو كجميع دروس فضيلته غداء
للأرواح والعقول . أمد الله فضيلته بروح من عنده ، وأيده بمدد من جنده .

محمد فريد وجدي

نفس سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى

شيخ الجامع الأزهر

الدرس الأول الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨

بمسجد الأستاذ البوصيرى بالاسكندرية

وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ) :

تقدموا : يصح أن يكون من قدّم المتعدى ، أو من قدّم بمعنى تقدم . وعلى الثانى يكون معناه : لا تتقدموه . وتحقيقه - كما قال الراغب - لا تسبقوه بالقول والحكم ، بل افعلوا ما يرسمه لكم ، كما هو شأن عباده المكرمين من الملائكة : لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . وذلك لازم التقدم ، لأن الذى يجعل لنفسه حق التقدم على أحد ، يجعل لنفسه حق إبداء رأى والسبق به ، وحق المخالفة . وحكى ابن جرير أن العرب تقول : فلان يقدم بين يدى إمامه ، على معنى يجعل بالأمر والنهى دونه . وعلى الأول إما أن يلاحظ تعدّيه الى مفعول محذوف لقصد التعميم ، ومعناه حينئذ : لا تقدموا شيئاً ما بين يدى الله ورسوله ، قولاً أو فعلاً ؛ وإما أن ينزل منزلة اللازم ، ومعناه : لا يحصل منكم تقديم ، غير منظور إلى أن المقدم ماذا ، على طريق قوله تعالى : « يحى ويميت »

وما ل المعنى على الوجوه كلها : النهى عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله . وقد نقل عن ابن عباس : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . وهو معنى قول الله سبحانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

ومعنى « بين يدى الله » : أمامه ، لأن المكان الذى بين العضوين المعروفين هو الإمام .
وحقيقة قولهم : جلست بين يدى فلان ، أن يجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله حتى
ينظر اليه من غير تقليب حدقة . وذكر الرسول ، باعتبار أنه المبلغ المبين ، الحافظ للشريعة ،
والمدافع عنها .

« واتقوا الله » : أى اجعلوا وقاية بينكم وبين سخطه وعذابه ، وهى اتباع أوامره
 واجتناب نواهيه ، والوقوف عند الحدود التى بيّنها .

والسميع : إذا وصف به الله سبحانه كان المراد به علمه بالمسموعات وتحريه المجازاة بها .
وكل موضع أثبت الله فيه السمع للمؤمنين ، أو نقاه عن الكافرين ، أو حث عليه ، فالقصد به
الى تصور المعنى والتفكير فيه والاعتبار به ، نحو « الذين يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ
أَحْسَنَهُ (١) » ، « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ (٢) » ،
« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٣) » « وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا (٤) » . والله يعلم
المسموعات ، ويعلم المراد منها ، ويعلم ما فى الضمير ، وما توسوس به النفوس ، لا تخفى
عليه خافية .

وهذه الآية تقرر أصلاً عظيماً من أصول الاسلام ، وهو أن الحكم لله وحده ، لا معقّب
لحكمه ، وهو أحكم الحاكمين . ويقرر هذا الأصل أتم تقرير قوله تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا
تَسْلِيماً (٥) » وقوله تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا
حَرَامٌ لِنُفْسَتِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ
قَلِيلٌ » ، ولهم عذابٌ أليمٌ (٦) » ، وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٧) » . وطاعة الله سبحانه هى العمل بما
فى كتابه ، وما بينه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وطاعة الرسول فى الحقيقة طاعة الله ، وذكر
باعتبار أنه مبلغ ومبين . أما أولو الأمر فهم الذين يفهمون كتاب الله ويستثمرونه فى الحوادث ،
وفهمون سنة رسوله القولية والفعلية ؛ فهم قادة الأمة فى الدين ، الذين يدركون أسرارها ،
وفهمون أغراضه ، ويحيطون بأحوال زمانهم وأمتهم إحاطة تمكنهم من تطبيق الكتاب
والسنة تطبيقاً صحيحاً ، ومن الاجتهاد لاستنباط الأحكام المحققة لمصلحة الأمة ، فى دائرة
الكتاب والسنة ؛ وذلك معنى الرد الى الله ورسوله . وعلى هذا جرى سلف الأمة ، واستثمر

(١) الزمر : ١٨ (٢) التوبة : ٦ (٣) النحل : ٦٥ (٤) الاعراف : ١٧٩ (٥) النساء : ٦٥

(٦) النحل : ١١٦ ، ١١٧ (٧) النساء : ٥٩

المعلماء نصوص الكتاب والسنة ، ووضعوا قوانين الدولة الإسلامية كاملة في زمانهم ، ولم يكن لهم شهوة في الخلاف ، بل كانت وجهة الجميع بيان أحكام الله حسب اجتهادهم الخالص لله ؛ لكن الأحداث غيرت مجرى الأمور ، وحب الجاه والسلطان لوى الناس عن الحق ؛ وكان أصحاب الأهواء يحاولون رد أهوائهم الى الدين ليقال إنهم على الحق ، غير خارجين على حدود الله ، فتعسف الناس في التأويل ، وجدت مذاهب وآراء تبرأ منها اللغة ، ويتجافى عنها الدين ، وتعصب لها أصحابها ومقلدوها ؛ تعصب لها أصحابها على علم بضلالها ، وتعصب لها مقلدوها على علم أو جهل وحسن نية ، فنفرق المسلمون فرقا وأحزابا ، تحمل كل فرقة ضغنا على مخالفيها ، وتجزئ قناتها وهدمها ، ولم يكن مثل هذا معروفا في صدر الإسلام ، وعند صالحى الأمة وكبار الأئمة .

جرت الأمور على هذا النحو ، فضعف شأن المسلمين ، وقاتل بعضهم بعضا ، ثم وهنت العزائم ، وأحبوا الحياة ، وتحللوا من الأوامر والنواهي الإلهية ، إما بالخروج عليها ظاهرا جهارا ، وإما بالخروج عليها تأويلا ، وتقطعت بينهم الروابط ، ونسوا الوحدة ، ونسوا الوازم الآخوة الإسلامية التى عقدها الله فى كتابه بين المسلمين .

هذا شأن المسلمين اليوم ، وقبل اليوم بقرون ؛ ولا نجاة لهم إلا بالرجوع الى الله ، وتفهم كتاب الله ، والعمل بما سنّه رسول الله . ومن الخطأ كل الخطأ أن يظن ظان أن تأخر المسلمين نشأ عن دينهم ، كلا ! فإن فى دينهم من الأخلاق السكاملة الفاضلة ، ومن الحث على العلم ، ومن الأمر بتسخير ما خلقه الله للإنسان ، ومن النظم الدقيقة للمجتمع ، ومن الأوامر التى تحث على البذل والصدقة ، والنضحية فى سبيل الحق — ما لا يوجد عند غيرهم . ومن الحق أنهم تركوا دينهم فذلوا ، وتركوا هدى الرسول فضلوا . ولعل العبر الماثلة الآن تفتح عيون المسلمين ، وتبصرهم أن الخروج عن الأديان ، واتباع المذاهب الضالة ، هو سبب ما فى العالم من شرور قد تطوح بالإنسانية الى الدرك الأسفل ، كما تطوح بأصحابها فى الآخرة الى النار . لعل هذه العبر توقظ النائم ، وتنبيه الغافل ، وتحرك الجامد ؛ ولعل نفحة من قبلى الله تهب فتسعدهم لتلقى النور الإلهى ، وتحملهم على الرجوع الى الهدى النبوى ، وما ذلك على الله بعزيز .

وجملة « بين يدى الله » : تدل بعد ما تقدم على الحضور ؛ والله سبحانه حاضر دائما مع العباد : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شئ عليم (١) »

وإذا عرفت أن الآية جاءت لتقرير أصل من أصول الاسلام عظيم ، وبيان ما يجب من الأدب مع الله سبحانه ، فلا يعنيننا بعد ذلك أن نبين سبب النزول ، وأن نذكر أنها نزلت في ممارسة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فيمن يكون أمير وفد تميم ، أو في ذبيحة الأضحية ، أو في النهي عن صوم يوم الشك ، أو في غير ذلك .

وبضم التاء في « تقدموا » قرأ قراء الأمصار . وقال ابن جرير : لا أستجيز القراءة بخلافها لإجماع الحجة من القراء عليها . وقرأ بعضهم « لا تَقْدَمُوا » بفتح التاء ، على معنى لا تتقدموا .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) :

ظهور الشيء بإفراط الحاسة السمع أو حاسة البصر : جهر . فن الأول : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به (١) » ، ومن الثاني : رأيت جهاراً ، و « أرنا الله جهرة » . والجَبْط : مأخوذ من الجَبْط ، وهو أن تكثر الدابة من الأكل حتى ينفخ بطنها . وفي الحديث « إن مما يُنبت الربيع ما يقتل حَبْطاً أو يُلِم » .

وحبوط الأعمال على أضرب :

أحدها : أن تكون الأعمال دنيوية لا يؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر ، فلا تغنى في الآخرة شيئاً ، كما في قوله تعالى : « وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ جَعَلْنَاهُ هَباً مَذْهُوراً (٢) » .

والثاني : أن تكون أعمالاً أخروية لم يقصد بها وجه الله ، كما روى أنه « يؤتى يوم القيامة بالرجل فيقال له : بم كان اشتغالك ؟ فيقول : بقراءة القرآن ، فيقال له : قد كنت تقرأ ليقال هو قارئ ، وقد قيل ذلك ، فيؤمر به إلى النار » .

والثالث : أن تكون أعمالاً صالحة ولكن توجد بإزائها سيئات تطفئ عليها .

كانت الآية السابقة لبيان الأدب مع الله ، وهذه الآية وآيات بعدها لبيان الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم . فقد أمر الله المؤمنين ألا يجعلوا أصواتهم عند الحديث مع الرسول الأكرم

مرتفعة فوق صوته ، وألا يكون خطابهم إياه كخطاب بعضهم بعضا في الجهر وعلو الصوت . وقد قيل إن الأول يخص حال المسكلة ، والثاني حال صمته عليه السلام ؛ وكأنه قيل : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته إذا نطق ، ولا تبجروا له عند دوائه إذا سكت وتكلمتم . ويلزم من هذا كله أن يكون صوتهم أخفض من صوته ، وأن براعوا في دوائه ومخاطبته اللين في القول ، أدبا مع مقام النبوة وجلالها . ولعل وجهه أن النهي عن رفع صوتهم فوق صوته صلى الله عليه وسلم يستلزم حتما ألا يكون خطابهم معه كخطاب بعضهم بعضا ، فلو لم يحمل أحد النهي عن رفع صوته ، والآخر على حالة أخرى ، لزم التكرار ، وأن يكون الثاني تأكيدا . والظاهر أنه لا داعي الى هذا ، لأن الأول أفاد النهي عن رفع الصوت فوق صوته ، وهو وإن تضمن ما تضمنه الثاني ، لكن الثاني يفيد دلالة أن مقامه ليس كمقامهم ، وأن ما يليق بهم في التخاطب لا يليق به ، وأن الخطاب معه يجب أن يكون على حال من الأدب واللين والرفقة يناسب ذلك المقام الرفيع الشأن .

نُهِوا عن ذلك مخافة بطلان أعمالهم ، وذهابها سدى من غير مثوبة ولا جزاء ، من حيث لا يشعرون أن أعمالهم حابطة ، وذلك لأن النهي جعل الجهر معصية ، لكن العادة قد تجعل الانسان غافلا عما في المنهى عنه من سوء ، وبخاصة إذا كانت العادة متأصلة ؛ وقد كان القوم جفاة غلاظا قريبي عهد بالتبدي ، ومن عادة التبدي الجفاء في الخطاب ، والإغلاظ في القول .

أدبهم الله بهذا الأدب ، ونهاهم عما يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن النبي جبارا ولا متكبرا ، بل كان جم التواضع ، كثير الحياء ، تفقه الآمة في الطريق لتحذنه فلا يتركها حتى تركه ، وقال : « إنما أنا ولد امرأة كانت تأكل القديد » ، لكن الرسول الأكرم كان كثير الفسك والهم ، كثير الشواغل ، يتلقى الوحي من ربه ويبلغه ويبينه ، ويسوس المسلمين دنيا وأخرى . يفكر في عزتهم ودفع الأذى عنهم ، ويفكر في حرب من يحاربه ، وسلم من يسالمة ، ويفكر في توفير الخير للمسلمين ؛ وهو مع ذلك كله بشر تؤذيه الغلظة وتقلق خاطره ، ومن كان هذا حاله ، وجب أن يوفر له الهدوء والسكينة ، وأن يباعد عنه كل شيء مشوش للاخاطر . أدبهم الله بهذا الأدب مع الرسول ، ونهاهم عن الغلظة ؛ ومن شأن النهي أن يردعهم ، وأن يمكن فيهم عادة اللين والأدب في القول ، وأن تطرد تلك العادة معه ومع غيره ؛ فهذا الأدب كما أنه أدب مع الرسول ، هو أدب مع المؤمنين بعضهم مع بعض . ولا تجدر رجلا لين القول سهلا عند الحديث إلا وهو ذو نفس مهذبة ، صقلته الأيام ، وفاض عليه طيب عنصره وكرم أرومته مما جعله محببا عند الناس .

وعلى العاقل أن يرعى أخلاقه ، ويداوم على التنبيه إليها ؛ وقد يكون ارتكاب

محرمٌ ما دأبوا إلى استمرائه والاسترسال فيه ، فتكثر السيئات ، وتحبط الأعمال من حيث لا يشعر . فالذيلة تكون أولاً حالاً ، ثم تصير ملكة ؛ وكذلك الفضيلة . وقد نقل عن أفلاطون : لا تصحب الشرير فإن طبعك يسرق وأنت لا تدري . وقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه بعد نزول هذه الآية قال : يا رسول الله : والله لا أكلّمك إلا السّرار أو أخت السّرار حتى ألقى الله ! وكان إذا قدم على رسول الله الوفود ، أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسمعون ، ويأمرهم بالسكينة . وقد روى أيضاً أن ثابت بن قيس بعد أن نزلت الآية ، جلس في بيته يبكي ، وقال : إني رجل جهير الصوت ، وأخاف أن يكون قد حبط عملي ! فبعث إليه صلى الله عليه وسلم وقال له : إنك لست من أهل النار ، تعيش بخير ، وتموت بخير . وقد مات شهيداً ، رضى الله عنه .

**

(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) :

الغض : النقصان من الطرف والصوت ، ومنه « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم (١) » و« اغضّض من صوّتك (٢) » .

والامتحان في الأصل : إذابة الذهب ليخلص إبريزه من الخبث وينقى منه . ويطلق الامتحان على الاختبار والتجربة ، يقال : امتحن فلاناً لأمرك كذا فوجده قوياً عليه ، أى جربته ؛ ويلزم من هذا معرفته .

تضمنت الآية السابقة التحذير من رفع الصوت ، وتضمنت هذه الترغيب في القول اللين ، فقد جعل جزاءه المغفرة والأجر العظيم . والمعنى : إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قوم أخلص الله قلوبهم وصفها وأعدها للتقوى ؛ أو عرف الله قلوبهم معدة للتقوى بعد الاختبار ، فهؤلاء لهم مغفرة وصفح عما اقترفوه من السيئات ، ولهم أجر عظيم على ما كسبوه من الصالحات .

**

(إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم) :

الحجرة: القطعة من الأرض تحجر ، أى يمنع من الدخول فيها بحائط أو نحوه . ووراء : فيه معنى المواراة والاستتار ، فكل ما استتر فهو وراء ، خلفا كان أو قداما ، إذا لم تره ؛ فالوراء بالنسبة للحجرات : ما كان خارجها .

وقد أخرج البخارى فى الأدب عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغطاة من خارجها بمسوح الشعر . وعن الحسن : كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فى خلافة عثمان فاتناول سقفها بيدي ، وقد أدخلت فى المسجد فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وبكى الناس لذلك . وقد قال سعيد بن المسيب إذ ذاك : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ليراها النشء من أهل المدينة ، ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك داعيا الى ترك التفاخر والتكاثر .

وعن زيد بن أرقم : جاء أناس من العرب الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا الى هذا الرجل ، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكا عشنا فى جناحه ؛ ثم جاءوا الى حجر النبي ينادونه : يا محمد ، فأنزل الله هذه الآية ؛ وقد تأذى الرسول صلى الله عليه وسلم من ندائهم على هذه الصفة .

وقد حكم الله على أكثرهم بعدم العقل ، إما لأن فيهم من لم يكن موافقا ، أو لأنه أقام إلا أكثر مقام الكل ، على عادة البلغاء فى عباراتهم . وعدم العقل جاء من ناحية الجهل بقانون الأدب فى النداء ، والجهل بما ينبغى أن يكون عليه الطالب ، من تخير الوقت ، وتخير المكان ، وتخير العبارة . وقد كان عليه السلام لا يحتجب عن الناس إلا حيث تقتضاه دواعيه الخاصة فى بيته ، فليس من الحق ولا من الأدب ألا تترك له الفرصة للاستجمام .

ولو أن هؤلاء صبروا حتى تخرج إليهم لكان ذلك خيرا لهم ، لكن الله غفور : يغفر مثل هذه الزلات التى لم تصدر عن سوء قصد ، ولم يكن سببها إلا تلك الطبيعة الجافة التى لم تهذب من قبل بعلم ولا دين . ورحيم : يرحم مثل هؤلاء ، ومن رحمته أن ينزل من الآيات الخالدة ، ما يؤدب عباده بالأدب الذى ترضاه النفوس الكريمة ، والطباع الشريفة . وهكذا يدخل القرآن فى شئون العباد ، فيعلمهم طريق النداء ، وطريق الاستئذان . وقد حكى عن ابن عبيد : ما دقت بابا على عالم حتى يخرج فى وقت خروجه . وكان ابن عباس يذهب الى أبى فى بيته لأخذ القرآن عنه ، فيقف عند الباب ولا يدق الباب حتى يخرج .

هكذا فعل القرآن ، وصقل الناس بآدبه الكريم ؛ وهكذا لا تسمو النفوس حتى تسترشد بالقرآن ، وتهتدى بهديه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصَحِّبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِرِينَ) :

فسق فلان : خرج عن حجر الشرع ، مأخوذ من قولهم : فسق الرطب ، إذا خرج عن قشره . يقع الفسق بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تعورف فيما كان كثيرا ، وهو أعم من الكفر ، لكن أكثر ما يقال لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بأحكامه كلها أو بعضها . وقوله تعالى : « أَفَسَوْفَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنَّ كَانَ فَاسِقًا (١) » يدل على أن الفسق أعم من الكفر ، لأنه قابل به الإيمان .

والبيان : الكشف عن الشيء . وبينته وأبينته ، إذا جعلت له بيانا يكشفه . والتبيين : التعرف وطلب البيان . والندم : النحس من خطأ الرأي في أمر فائت . والتركيب يدل على الملازمة ، ومنه المنادمة والمداومة . فالندم : تحسر يلزم صاحبه . وعامة قراء المدينة : فتنبتوا . وهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى ، فبأيهما قرأ القارئ فهو مصيب .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة في صدقات بني المصطلق ، فلما سمعوا مقدمه أعدوا أنفسهم للقاءه ، تعظيما لمن بعثه رسول الله ، فخدته الشيطان أنهم قاتلوه ، فرجع وقال : إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم ؛ فأغضب ذلك النبي والمسلمين معه ، وهم بغزوهم ، فلما بلغهم رجوع ابن عقبة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوا له حين صلاة الظهر ، وقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ! بعثت إلينا مصدقا فسررنا وقرت أعيننا ، ثم رجع من بعض الطريق نخشين أن يكون ذلك لغضب من الله ورسوله ؛ فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذن لصلاة العصر ، ثم نزلت الآية .

وأيا ما كان سبب النزول ، فالآية تقرر أصلا عظيما له خطره في الحياة . وكم فرق الكذب بين الأصدقاء ، وكم سفك من الدماء ، وكم شن من غارات ، وأثار إحنا وترات ، وكم فرق العشائر ، وذهب بالأنفس والأموال ! لذلك كان للصدق من المكاة ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة » ، وكان للكذب من الرداءة والحطة ما جعل النبي عليه السلام يقول فيه : « إن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار » ، ألا لعنة الله على الكاذبين !

وخطر الأخبار لا يجيء من ناحية الفسق وتعمد الكذب وحده ، بل يجيء من نواح أخرى ، فقد يكون الرجل عدلا لكنه لا يعرف كيف يسمع الأخبار ولا كيف ينقلها ،

فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء ؛ وقد يكون الرجل عدلا ذا غفلة فندس اليه الأخبار من الكاذبين وينقلها على ظن الصدق .

والثبوتُ في الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس ، وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون ، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفى على أشد الناس تثبتا من الأخبار .

وكثيرا ما يقع عدم الثبوت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر ، يجهلهم ذلك من ناحية استبعاد أن يكذب بطاتهم عليهم ، وهو مدخل للخطر عظيم .

والذين هم في أشد الحاجة الى العمل بهذه الآية ، هم الذين يبدون مقاليد الأمور ، ويبدون الضر والنفع ؛ أما الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا فحاجتهم اليها أقل من حاجة هؤلاء . والآية على العموم أدب عظيم لا بد منه لتكميل النفس ، وإعدادها لتعرف الحق ، والبعد عن مواطن الباطل .

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم عمل بقول ابن عقبة لغزا قوما مؤمنين يحبون الله ورسوله ، وسفك منهم دماء ، وأخذ منهم أموالا بغير حق .

فإنه تعالى يرشد عباده الى هذا الأدب الكامل ، ويحذرهم أن يعملوا بالأخبار قبل الكشف عنها ، وقبل الثبوت ، لئلا يصيبوا أقواما بسبب الجهل ، وبسبب الأخبار الكاذبة التي لا تفيد علما عند العقلاء ، فيصبحوا بعد ذلك آسفين نادمين ، يلزمهم الحزن على ما فرط منهم . فيجب الكشف عن الخبر بكل الوسائل المستطاعة ، ويجب على المؤمن أن يتعلم طرق الكشف عن الأخبار ، ويروض نفسه عليها . وقد قال الحسن : فوالله لئن كانت الآية نزلت في هؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة الى يوم القيامة ما نسخها شيء .

والنبا : هو الخبر العظيم . أما الأخبار النافهة التي لا يترتب شيء عليها ، فهي في غير حاجة الى التبين والثبوت .

(واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنيتم ، وليكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم) :

العنت : الجهد والمشقة والهلاك . والزينة ثلاثة أنواع : نفسية كالعلم ، وبدنية كالقوة وطول القامة ، وخارجة عنهما كالجاه والمال .

كفر النعمة وكفرانها : سترها بترك أداء شكرها . والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يمجّد الوحداية ، أو الشريعة ، أو النبوة ، أو ثلاثها . وقد يقال : كفر ، لمن أخل بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله ، نحو « مَنْ كَفَرَ فَعَايَاهُ كُفْرُهُ » إذ هو مقابل لقوله : « وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ لَهُمْ يَمْحَدُونَ (١) » . والذي تنطوي عليه الطبيعة الانسانية هو كفران النعمة وعدم القيام بشكرها ، يدل عليه « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (٢) » ، لكنه قد يخرج بالتعليم والتهديب وتقويم الدين الى حالة أخرى ، وذلك هو المقصود بقوله تعالى : « وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ » . فهو لاء صحابته صلى الله عليه وسلم : فاض عليهم نوره ، وغمهم أدبه ، وهذبهم تعليمه ورياضته ، غلب إليهم الإيمان ، وصار زينة عندهم ، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان .

والعصيان : خروج عن الطاعة . ويقال لمن فارق الجماعة : شق عصا الطاعة . وأصله أن يمتنع الرجل بعصاه .

والرشد : خلاف الغي ، يستعمل استعمال الهداية . وقيل الرشد في الأمور الدنيوية والأخروية ، والرشد في الأمور الأخروية لا غير . والراشد والرشيد يقال فيهما جميعا .
والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل . والحكمة بالنسبة لله : علم الأشياء ، وإيجادها على غاية الأحكام ، وبالنسبة للإنسان : معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات .

تذكر الروايات التي رويت في قصة ابن عقبة وبنى المصطلق ، أن النبي عليه السلام ، حدثه نفسه بغزوه ، وأنه غضب على بنى المصطلق بعد أن سمع خبر ابن عقبة ، وأنه لم يصدق وفدهم عند حضوره إلا بعد نزول الآية ، وأنه بعث خالدًا وأمره باستطلاع حالهم ، وعدم العجلة في حربهم ، وأن من المسلمين من حستن غزوه ، ومنهم من كان مع الرسول في التريث والتثبت . وقد دعا هذا بعض المفسرين الى توزيع الخطاب ، فجعل قوله : « لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ » لمن كان همهم غزوه ومطالبة الرسول به ، وقوله : « وَلَكِنْ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ » للفريق الذي لم يطالبه بالغزو وكان معه في التريث وطلب التثبت ؛ ورأوا أنه لا يصح أن يكون المخاطبون واحدا في الطرفين ، لأنه ذكر أولاً أن طاعتهم توجب العنت ، وذكر ثانياً أنه حبب إليهم الإيمان ، وكره الفسوق والعصيان ، والأمران متناقضان لا يجتمعان في فريق واحد . غير أن توزيع الخطاب على هذا النحو لا يليق ببلاغة القرآن وإعجازه ، وليس هناك ضرورة تدعو اليه ؛ وسيعلم ذلك مما يأتي :

بعد أن حذر الله المؤمنين أخبار الفاسقين ، نبههم الى أن الرسول بينهم ، وليس المقصود ظاهر الخبر ، لأن ذلك معروف بالعيان ، بل المقصود لازمه وهو وجوب التحرز من الكذب وتوقيه ، لأن المؤمنين ورئسهم الأعظم بينهم ، يجب أن يكونوا بعيدين عن الدنيا ، وعن الكذب الذي يؤدي الى المفساد ، ويحجر الى ويلات قد يشترك فيها النبي الأكرم ؛ ولا يليق بمن يحبه ويؤمن به ويعظمه ، أن يوقعه في مثل هذا الخطر الذي يؤدي اليه الكذب ؛ وهذا الحب وهذا الإجلال يدعو الى الاحتراس من وقوع المحبوب فيما لا يليق أن يقع فيه . والإعلام بأن فيهم رسول الله ، تنبيه لهم على وجود المرشد الذي يجب اتباعه ، وتجب طاعته . وبذلك ماد الحديث الى الطاعة ، والى عدم السبق بالرأى ، والتعجل في الحكم ، وهو موضوع أول آية في السورة .

والسر في ذلك الوجوب : هو أن الرسول مبالغ أمر الله ، ومبين له ، وأنه أدرى بالأغراض الإلهية ، وأدرى بمصالح الأمة وما ينفعها ، من كل من كان حوله ، يؤيده الوحي ، ويمده النور الإلهي ، ومقامه مقام المتبوع ، ومقامهم مقام التابع ؛ فيجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم ؛ ولو أن الأمر انعكس وأطاعهم لنالهم من طاعته إياهم عنت وجهد ، ومشقة وهلاك ؛ ولكن ذلك لا يكون ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكم منصبه ، لا يتبع إلا ما يوحى اليه من ربه ، وهذا مبدأ معروف لم يحجر حديث عنه في الآية ، ولأن جماعة المؤمنين بحكم إيمانهم لا يرضون ذلك ولا يطالبون به ، لأن الله حجب اليهم الإيمان بالله ورسوله ، وذلك يستدعي طاعة الله ، وطاعة رسوله ؛ وحسنه في قلوبهم فهو لاصق بها ، وكره اليهم الكفر بالله ورسوله ، وكره اليهم الخروج عن الطاعة ، وركوب ما نهى الله عنه ؛ وقد جرت عادة القرآن أن يخاطب الجميع ولو كان الذي فعل الفعل البعض ، تنبيهها على أن المسلمين يعدّون وحدة وإن كثرت الأعداد ، وأن ما يفعله البعض منهم يعد صادرا عن الجميع .

ومن المفسرين من حمل الفسوق على الكبائر ، والعصيان على الصغائر . وقد نقل عن ابن زيد : الفاسق في كتاب الله كله : الكاذب . ولذلك حمل الفسوق على الكذب ، والعصيان على الإخلال بالأركان .

ثم وصف الله سبحانه من حجب اليهم الإيمان وكره اليهم الكفر ، على طريق الالتفات ، بأنهم الراشدون ، السالكون طريق الحق ، المهتدون اليه ؛ وبين أنه فعل ذلك فضلا منه ونعمة عليهم . وقد قيل : إن الفعل إذا نظر الى صدوره من جانب الحق سمي فضلا ، وإذا نظر الى وصوله الى العبد سمي نعمة .

والله عليم : بأحوال الخلق ، وبالحسن منهم والمسيء ، ومن هو أهل لفضله ، ومن ليس أهلا للفضل . وحكيم : يضع الأشياء موضعا .

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

وأصحابه إلى المدينة

بدء تأليف الأنصار للدعوة الإسلامية :

كانت يثرب ، وهي التي اشتهرت باسم المدينة ، يسكنها قبيلتان : بنو الأوس ، وبنو الخزرج ، وكان الأوس والخزرج أخوين ، وكان بين أولادها وأحفادها من التنافس ما لا يكون مثله إلا بين الأعداء الألداء ، وكان يجاور هاتين القبيلتين بيثرب قبائل لجاليات يهودية هاجرت من مواطنها ببلاد الدولة الرومانية هرباً بدينها من اضطهاد المسيحيين ، فكان بنو الأوس وبنو الخزرج يتفقون مع بعض جماعاتهم لمحاربة بعضهم لبعض . واتفق أن حدثت بينهم حرب ، دعيت يوم بُعثت على عادة العرب من تسمية حروبهم بالأيام ، أتت على أكثر قاداتهم . فرأى بنو الأوس أن يحالفوا قريشا على أولاد عمهم الخزرج ، فارسلوا وفداً منهم تحت قيادة إياس بن معاذ ، وأبي الحيسر أنس بن رافع ، يفاوضون قريشا في عقد هذا الحلف .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر قدومهم جاءهم وقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، وقد أرساني الله إلى البشر كافة ، وتلا عليهم آيات من القرآن الحكيم .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له ، فعارضه أبو الحيسر وقال له : لقد جئنا لغير هذا ، فسكت إياس .

فلما جاء موسم الحج تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجال من الخزرج عددهم ستة ، ودعاهم إلى الإسلام ، فشرح الله له صدورهم ، وقبلوه ديناً لهم ، وقالوا الرسول الله : إنا تركنا قومنا وبينهم من السخائم ما بينهم ، فان يروا رأينا في الإسلام فلا يكون رجل أعز لدينا منك ، ووعدوه باللقاء في الموسم المقبل .

فلما أقبل الموسم قدم الى مكة اثنا عشر رجلا للتفاوض مع النبي صلى الله عليه وسلم ، منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، واجتمعوا برسول الله عند العقبة ، واتفقوا معه على الاسلام ، وباعوه على أن لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ولا يزناوا ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا بهتان ولا يعصوه في معروف . وقد سمي هذا الاتفاق ببيعة العقبة الأولى .

ولما أزمعوا العود الى يثرب أصحابهم النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من خيرة رجاله : مصعب بن عمير العبدري ، وعبد الله بن أم كلثوم ، ليذيعا الاسلام في القبيلتين ، ويدعوا اليه ، ويعلموا من يدخل فيه .

فنزل مصعب على أحد الذين بايعوا رسول الله وهو أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وأخذ يدعو الناس للاسلام . فلما نفي الخبر الى سعد بن معاذ رئيس الأوس ، قال لابن عمه أسيد بن حضير : يا ابن عم ألا تقوم الى هذين الرجلين اللذين يفتنانا لئلا نترجسهما ؟

فنهض أسيد بن حضير يريد هما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، مضيف مصعب ، قال له : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه .

فلما حاذهما قال لهما : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعترلا إن كان لكما بنفسيكما حاجة . فقال له داعية الاسلام مصعب : ألا تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره ؟ فجلس ، فقرأ عليه مصعب آيات من القرآن فيها هدى وبلاغ ، فوقعت من قلبه أرفع موقع ، فلم يقم من مجلسه إلا مسلماً .

لما عاد أسيد بن حضير الى رئيسه سعد بن معاذ سأله عما فعل ، فقال : والله ما رأيت بالرجلين بأساً .

فاستشاط سعد غضباً وقام لهما بنفسه ، فقابله مصعب بما قابل به رسوله ، فلم يتمالك نفسه بعد سماعه ما سمع إلا أن أسلم ، وكان إسلامه خيراً وبركة ، فانه لما عاد لقي رجلاً من بني عبد الأشهل وهم من الأوس وقال لهم : ما تعدونني فيكم ؟ فأجابوه أنت سيدنا وابن سيدنا ، فقال : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا .

فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه ، وسرعان ما عم الاسلام يثرب كلها ولم يبق لأهلها حديث غيره .

بيعة العقبة الثانية :

لما أقبل العام التالي لعام البيعة الأولى ، قدم مكة كثيرون من أهل يثرب ، فلقى النبي صلى الله عليه وسلم مسلميهم ، فواعدوه الاجتماع ليلاً عند العقبة ، فأمرهم أن يتلطفوا في المجيء ، وأن لا يشعروا بهم أحداً ، لكي لا يتنبه لهم القرشيون ، ويعملوا على منع اجتماعهم . فلما

مضى ثلث الليل الأول خرجوا من مضاربهم يتسللون تسلل القطا الى مكان الاجتماع ، وما زالوا يحتشدون حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلا ، منهم اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان ، ووافاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه وإنما جاء معه ليشد أزره . ولما أنصتوا ليسمعوا ما يلقى إليهم ، قال لهم العباس : إن ابن أخي محمدا في منعة من عشيرته لم يمكنوا منه أحدا ، وقد تحملوا في ذلك أعظم العنت ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه به من الحماية ، وما نعوه ممن يتقصده بسوء ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته يحمونه بما يصل إليه جهدهم .

فقال كبير القوم البراء بن معرور : والله لو كان في أنفسنا غير ما نتطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق ، وبذل أنفسنا دونه .

عند ذاك قال القوم للنبي صلى الله عليه وسلم : خذ لربك ولنفسك ما أحببت .

فقال : أشرت لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم .

فقال له الهيثم بن التميمي : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال عهدا ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : بل الدم الدم ، والهدر الهدر . أى إن طالبتكم بدم طالبت به معكم ، وإن أهدرتموه أهدرته .

ثم بدأت المباينة على ما طلب . ولما تمت اختار منهم اثني عشر رجلا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، لكل عشيرة منهم واحد ، والتفت اليهم قائلا : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي .

فبلغ قريشا أمر هذا الاجتماع فهاهم ، ولقوا أهل يثرب وقالوا لهم : يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا ، وتبايعونه على حربنا . فأنكر مشركوهم ذلك ، لأنهم لم يشعروا به ، وحلفوا لهم أنه لم يحصل منهم شيء في ليلتهم ، وقال لهم رئيسهم عبد الله بن أبي : ما كان قومي ليفتاتوا على شيء من مثل هذا .

يثرب معقل الاسلام :

لما عاد وفد الأوس والخزرج الى مدينتهم شاع فيها الاسلام ، وتحققت قريش من ذلك أن ما كان بلغها من مما لآلة أهلها للنبي صلى الله عليه وسلم صحيح ، وأدركت ما يبتنى على إغضاها عنه من الأحداث والكوارث ، فشددت الرقابة على رسول الله ، وزادت في التضييق على أصحابه لتحملهم على الانقضاء من حوله . فأمرهم صلى الله عليه وسلم بالفرار بدينهم الى المدينة ، فأخذوا

يتسللون اليها خفية ، حتى لم يبق في مسكة غير أبي بكر وعلى وصهيب الرومي وزيد بن حارثة وقليل من المستضعفين الذين لا يستطيعون الانتقال . وأراد أبو بكر الهجرة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي ، فقال الصديق : وهل ترجو ذلك ؟ قال نعم ، فكث أبو بكر مع رسول الله ليهاجر معه ، وأخذ في إعداد راحلتين كانتا له وتغذيتهما ورق السمُر لتقويا على تحمل مشاق السفر .

مبادرة قريش الى اتخاذ قرارات خطيرة :

لم تكتف قريش بما اتخذته من رقابة ، وما بالغت فيه من اضطهاد ، ورأت أن أمر رسول الله قد استفحل بما أصبح له من علاقات خارجية تقضى لا محالة الى نشوب حروب طاحنة ، ونشوء كوارث ماحقة ، لذلك دعت رجالها الى الاجتماع للمشاورة في دار نذوتهم ، على عاداتهم في الشئون الهامة ؛ وكانت هذه الندوة دار قصي بن كلاب .

فلما التأم جمعهم أخذوا يتناصرون ، فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كي نستريح منه . فرد عليه بعضهم بقوله : إذا خرج فيوشك أن تجتمع عليه الجوع فلا نأمن غائلته ، ونجد منه ومن مناصريه عننا .

وأدلى واحد آخر برأيه فقال : نجبسه حتى يأتيه الموت . فعارضه بعض المؤتمرين بقوله : إذا فعلنا ذلك فلا نأمن أن يجيء أنصاره يثرب لتخليصه ، فتقع الحرب بيننا وبينهم .

هنا انبرى شيخ منهم وقال : الرأي عندي أن تشترك جميع بطون قريش وأخاذها وعشائرها في قتله ، بأن ندب من كل منها شابا فيجتمع عليه هؤلاء الشبان فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل فلا تقوى عشيرته على حرب قريش كلها ، ويرضون بأخذ ديتة . فقبل جميع المؤتمرين هذا الرأي ، وأصروا على تنفيذه .

فأوحى الله الى رسوله بما بيته له قومه ، وأمره أن يهاجر الى يثرب ليلحق بأنصاره هنالك ، ويستقبل من أمر الدعوة عهدا جديدا .

نظرة علمية في هذه الحوادث :

قبل أن نأتى على تفصيلات الهجرة النبوية ، وما احتوشتها من محاولات القرشيين في منعها وتعقبها ، رأينا أن نقف في هذا الموطن هنيئة للنظر في التعليقات التي أبدت لتفسير الاسلام الفجائي لقبيلتين لا تمان بسبب الى أية دعوة دينية ، ولا يعنينا من أمر النهوض الاجتماعى للأمة العربية ما لا يعنى غيرها . فأننا نرى أن تلك التعليقات ، حتى الاسلامية منها ، لاتقنع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعية ، ولا تبين من حقيقة هذا الأمر الجلل ما يجب أن يُعرف ، وخاصة في هذا العصر الذى لا ينخدع أهله بالخرافات الكلامية .

إنى أرى فى هذا الأمر حادثا اجتماعيا لم يسجل تاريخ التطورات النفسية والاجتماعية له مشبهاً، فإن كان كل ما لا يمكن تعليله بعلة طبيعية يعتبر آية، فهو آية يزيد لها من الأيام جلالاتها وعظمتها. ولكن المدار على وضع هذه المسألة وضعا علميا تصلح معه لأن تحلل الى عناصرها الأولية. وفى نظرى أن بيان هذه الناحية من قوة السريان فى الديانة الاسلامية، وفى سرعة تلقف النفوس لها، والتأثر بها الى أقصى حدود التضحية، يكشف من أسرار هذا الروح الإلهى، وهو الاسلام، ومن صحة رسالة الداعى اليه، وهو محمد، ما لا تكشفه أية ناحية أخرى.

علل كتاب السيرة المسلمون هذا الأمر الجلل بأن اليهود الذين كانوا مجاورين لأهل يثرب كانوا يتحدثونهم بقولهم لهم: إن نبيا يرسل آخر الزمان من بلاد العرب، فإذا ما ظهر اتبعناه واتفقنا معه عليكم وقهرناكم. فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ودعا للاسلام، تذكر أهل يثرب ما كان يهددهم به أعداؤهم، وقال بعضهم: لبعض هلم بنا اليه، لا يسبقنا الاسرائيليون الى اتباعه. ثم ما كان منهم إلا أن تسارعوا الى تلبية ندائه، واضطلعوا من مهام نصرته بما لا يقدم عليه إلا المتفانون فى ولائه.

هذا التعليل الذى تناقله جميع كتاب السيرة، ويفرح به الذين لا يرون فى حوادث الدعوة الاسلامية إلا أمورا عادية يمكن تعليلها بعلم طبيعية، لا يسلم من النقد، بل لا يقوى على احتماله، لأن أهل يثرب لم يدخلوا فى الاسلام، ولم ينتدبوا للاضطلاع بالدفاع عنه، إلا بعد أن مضى على إعلان النبي صلى الله عليه وسلم له نحو ثلاث عشرة سنة، فأين كانوا من الاسلام طوال هذه المدة، وكيف لم يخشوا أن يسبقهم اليه اليهود الذين توعدوهم به، ولم أحجم هؤلاء اليهود عن المسارعة الى قبول دعوته، وقد بلغتهم بمكة وبالمدينة أيضا قبل إسلام الأوس والخزرج بسنين كثيرة؟

ألا يدل هذا الانصراف الطويل من الجانبين على أنهم كانوا لا يفكرون فى الاستنصار بالنبي الجديد على مناهضهم؟

وإذا صح أن اليهود كانوا يعتقدون بوشك ظهور نبي فى بلاد العرب، وأنهم يعملون على الانضمام اليه، والاستنجاد به، أكانوا يصرحون بذلك لأعدائهم غير خاشين أن يسبقوهم الى الدخول فى دينه، ولم يعهد فى تاريخ بنى إسرائيل أنهم كانوا من إفشاء أسرارهم بحيث يطلعون أعداءهم على صميم سرايرهم؟

وإذا كان هذا مما لا يمكن قبوله، فهل يمكن قبول أن الأوس والخزرج كانوا من السذاجة بحيث يصدقون كلام اليهود، ويبادرون الى الدخول فى دين جديد، وخاصة إذا كان الداعى

اليه مضطهدا، وأصحابه مستضعفين لا يغنون عن أنفسهم شيئا؟

كان ميلهم الى الدخول فى طاعته، إذا كان لديه رجال ومال يرجون أن يتقوا بهم على

أعدائهم ، مما يمكن أن يعقل ، أما والنبي نفسه كان يطلب اليهم الحماية والنصرة على أعدائه ، وليس لديه مال ولا اعتداد يمكن الاعتماد عليهما ، فما يستحيل تعقله ، وخاصة لأن الاتفاق معه بوقعهم في حرب مع قريش ، فكيف يصدر من قوم عقلاء أن يستكثروا من الأعداء في الوقت الذي كانوا هم فيه يريدون الاستكثار من الانصار بطلبهم محالفة قريش ؟

أجمع كتاب السيرة على أن الأوس كانوا أوفدوا رجالا منهم لطلب معونة قريش ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قابلهم ودعاهم للإسلام فقبلوه ، فكيف يتفق هذا وما قالوه من أن الأوس والخزرج بادروا الى الاسلام للاستنصار بالنبي صلى الله عليه وسلم على أعدائهم ؟

لم يبق إلا أن يقال إن هؤلاء اليثريين أسلموا لأنهم تحققوا أن الله ناصر رسوله لا محالة ، وأنهم بالدخول في طاعنه يضمنون التغلب على خصومهم ، وهذا مما لا يسيغه العقل ، ولا يمكن أن يقبله العلم ، وتدل ما جريات الحوادث على خلافه .

فأننى لقبيلتين جاهليتين أن تعتقدا برسالة لم يقم دليل على صحتها ، بل لا تزال مضطهدة ، مغلوبا على أمرها ، ولم يظهر بعد ما يدل على أن العاقبة ستكون لها ، وليستا أهل كتاب ، ولا تعرفان من أمر النبوات إلا ما يترامى إليهما من أحاديث عامة اليهود في بلادها ؟ وأننى لأحاديثا أن يحصلوا إيماننا راسخا يسمح لهم أن يبيعوا أنفسهم ، ويبذلوا أموالهم ، في سبيل نصرة ديانة لم يتم تكونها بعد ؟

بعض هذا لم يعهد في طبيعة البشر ، فما ظنك به كله طفرة وعلى غير انتظار ؟

لننظر في تعليقات غير المسلمين :

يقولون : إن الحرب التي كانت قائمة بين الأوس والخزرج كانت قد طال عهدها وأصبحت علة مزمنة دفعتهما لطلب الخرج منها بأي ثمن ، فلما انتشرت الدعوة الاسلامية رأنا أن خير وسيلة لوضع حد لذلك التناحر ، أن يدخلوا في الدين الجديد ، ويعودوا الى سالف صفائهما بسببه ، فأقدا على ما أقدما عليه .

نقول : فهل كان غاب عن الأوس والخزرج أنهما بالحصول على السلام بينهما بهذا الثمن يستجلبان عداوة قريش وحلفائها ، ومن يهيمه ملاشاة الدعوة الاسلامية من سائر العرب ، فتقعا في شر مما هربت منه ، وأصبجا هدفا لخط العرب واليهود معا ؟

أما توهم أن قريشا كانت تغضى عن محمد وعنهما فستحيل ، لأن العرب كانوا يتقاتلون لأضعف الأسباب كسب قبضات ، أو قتل ناقة ، أو قصيدة هجاء ، فهل كانت تغضى قريش ، وهي القيمة على دين العرب ، عن إيواء قبيلتين رجلا منها يسب آلهتها ، ويحقر ديانتها ، ويسفه أحلامها ، ويتوعد بالشر ، ويستهوئ الناس لاتباعه ، حتى إذا ما قوى شأنه ، أغار عليها فأزال سلطانها ، وحطم أصنامها ، وأباد خضرائها ؟

اللهم لا ، وكان الأوس والخزرج يعلمون ذلك ولا يتجاهلونه ، فهل كان بلغ بهم اختلال العقل الى جلب عدد لا يحصى من الشرور على أنفسهم في سبيل التخلص من شر واحد يمكن أن يُتقى بوسائل كثيرة ؟

الخيال في هذه المواطن خصب ، فيمكن أن تُنتحل لدخول الأوس والخزرج في الاسلام فجأة أسباب معاشية ونفسية واجتماعية ، فيقال مثلا : إنهم أرادوا بالانضمام الى دعوة دينية أن تمهد لهم سبل الغارات والفتوح ، فيغنموا ويثروا تحت ستار إقامة الحق في الأرض .

أو أن يكونوا قد تهذبت نفوسهم ، وتطورت عقولهم ، فكروهوا أن يقيموا على وثنية منحطة كالتى كان يدين بها العرب ، فلما ظهر دين التوحيد الخالص تسارعوا الى اتباعه .

أو أن يكونوا قد ترقى شعورهم القومى فكروهوا أن يبقى العرب على الحالة القبلية إزاء أمم العالم ، وناقوا لأن ينتقل مواطنوهم درجة أو درجات في سلم الاجتماع ، ورأوا أن هذا لا يكون إلا تحت ستار دعوة دينية ، أو نعمة جنسية ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ودعا الى التألف والتحاب اتبعوه لتحقيق غرضهم الشريف .

كل هذه خيالات لأن الأوس والخزرج لم يكونوا في حالة يرجون معها أن يوسعوا على أنفسهم دائرة التنافر ، أو ينهضوا للفتوح دون أن يعتمدوا على ركن ركين من مال وجاه . ولم يعرف عنهم تهذب نفسى ، وتطور عقلى ، يدفعانهم الى تطلب غذاء روحى أرق مما لغيرهم من سائر العرب . فاذا كانت قريش على كثرة صلاتها بالقبائل ، وانتقالاتها الى الخارج ، لم تبلغ مثل هذه الدرجة ، فيصعب أن يتصور العقل أن تبلغها قبيلتان متناحرتان ، لم تدع لها حالة الحرب فرصة صالحة للتفكير فى الشؤون الدينية والاجتماعية . وهذه الأمم المنمذنة أمامنا متى وقعت فى حرب تجردت للنضال ، وتركت هذه الشؤون جانبا ، حتى يجئ عهد السلام ، وتتفرغ للتأمل والتفكير هادئة مطمئنة .

بقيت شبهة يمكن أن يتذرع بها متمسك التعليقات الطبيعية ، وهى أن قبيلتى الأوس والخزرج برّمتا باليهود الى حد تمس الخالص منهم من أى وجه كان ، فترامتا على الاسلام رجاء أن تصادف فيه مخرجا .

هذه الشبهة لا تقوى على النقد ، لأننا رأينا أن الأوس والخزرج كان بعضهم يتفق مع بعض قبائل اليهود على بعض ، فكان البأس الشديد بينهم وبين أنفسهم ، لا بينهم وبين اليهود .

على أننا نقول : من أية النواحي كانوا يرجون التخلص بالدخول فى الاسلام وهو يحملهم أعباء حربية جديدة ، ويدفعهم الى التورط فى منازعات لا تعتبر منازعات اليهود بجانبها شيئا ، منها عداء قريش ، وعداء جميع قبائل العرب ، ويزيد عليهم اليهود أيضا ؟

فهذه الافتراضات كلها كما ترى خيالية ، ولا يمكن أن يقام لها وزن في تعليل مثل هذه الانتقالات الفجائية ؟

فلم يبق أمامنا إلا تعليل واحد ، وهو أن قيم الوجود تعلقت إرادته أن يحدث في العالم الانسائي انتقالا جديدا ، برسالة خاتم المرسلين اصطفاه من بلاد العرب ، أبعد بينات العالم عن توليد الانقلابات الاجتماعية ، ليكون أمره كله إعجازا في إعجاز ، فبث في رُوع قبيلتين منها هداية إجماعية ، وهو أمر بعيد الحصول في عالم التطورات العقلية ، فقبلنا أن تضطلعا بعبء حماية الدعوة الإسلامية ضد الأبيض والأسود ، أي ضد العالم كله ، وهي مهمة تعتذر عن قبولها أمة عظيمة ، فما ظنك بقبيلتين صغيرتين لا يتجاوز عدد أهلهما خمسة آلاف نسمة ، ولا تستطيعان أن تلقى في ساحة الوغى أكثر من ألف رجل على أكبر تقدير ، وليس لهما من المال ما تنفقانه على مثل هذا العسكر سنة واحدة .

ما هذا الإقدام المحير للعقل من جماعة من الناس لو توجهت إليها حفيظة أمة برمتها لخروجها عليها ، لارتعدت فرأى أشجع أبطالها ؟ بل ما هذه التضحية التي لا يقبلها إلا من وصل الإيمان إلى أعماق قلبه ، حتى فنيت فيه شخصيته ، وأين هو من الأوس والخزرج ولم يجتمعا بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا لحظات مختلصة في الليالي المظلمة ؟

لو كان لمحمد مال ، أو مدد من الرجال ، أو اتصال بأمة عظيمة تنصره إذا اقتضت الحال ، لقلنا إن الأوس والخزرج إنما مالوا إلى حيث يرجون العز والسودد ، ولكنهم حيال رسول عدم الناصر من قومه ، وليس يتوقع له فوز يطمع في خيره ، فما الذي جمعهم على التطوع لنصرته ، والتضحية بنفوسهم في سبيل دعوته ؟

اللهم إني عجزت عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية ، ولا أراه إلا آية إلهية ، وكم في الأرض والسموات من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية ؟ محمد فريبر وجهرى

التنزيه الخالص

قال الله تعالى : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار ، وإن الملائكة الأعلى يطلبونه كما يطلبونه أنتم » .

وقال على رضى الله عنه : « كل ما يتصور في الأوهام فالله بخلافه » .

وقال الشافعى رضى الله عنه : « من انتهض لطلب مدبره فان اطمأن الى موجود ينتهى إليه فكركه فهو مشبه ؛ وإن اطمأن الى نفي محض ، فهو معطل ؛ وإن اطمأن الى موجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موحد » .

الوصية

حكم الوصية بالمال وغيره

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : « جاء النبي صلى الله عليه وسلم يُعَوِّدُنِي وَأَنَا بِمَكَّةَ - وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ مِنْهَا - قَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَقْرَاءَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَوْصِي بِمَا لِي كُلُّهُ ؟ قَالَ : لَا ، قُلْتُ : فَالْشُّطْرُ ؟ قَالَ : لَا ، قُلْتُ : الثَّلَاثُ ؟ قَالَ : فَالْثَّلَاثُ وَالثَّلَاثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ إِنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَانْهَ صَدَقَةً حَتَّى اللَّقْمَةُ تَرْفَعَهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ ؛ وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا ابْنَةٌ . » . رواه البخاري في الوصايا .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الوصية وحكمها . (٢) بيان معنى الحديث إجمالاً . (٣) بيان ما تضمنه الحديث من الحث على الاقتصاد في المال حتى في عمل الخير مراعاة لحقوق الورثة .

(١) تطلق الوصية في اللغة على معان ، يقال : أوصيت إلى فلان بمال : جعلته له وخصصته به . ويقال : أوصيته بولده : استعطفته عليه . ويقال : أوصيته بالصلاة : أمرته بها . وتطلق لغة أيضاً على وصل الشيء بالشيء ، فيقال : وصيت الحبل بالحبل إذا وصلته به . ومناسبة هذا المعنى للمعنى الشرعي الآتي بيانه ، أن الموصي لما أوصى بالمال بعد موته كأنه وصل ما بعد الموت بما قبله في نفوذ تصرفه . وتجمع الوصية على وصايا ، على زنة هدية وهدايا .

وأما معناها في اصطلاح الفقهاء : فقد عرفها الحنفية بأنها « تملك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع » . فقولهم : « تملك » يشمل العقود التي تنقل الملكية ، كالبيع والهبة وغيرها . وقولهم : « مضاف لما بعد الموت » معناه أن الملك في الوصية لا يتقرر إلا بعد الموت ، بحيث لا يكون العقد نافذاً إلا بعد الموت . وهذا القيد يخرج جميع العقود ما عدا الوصية . أما قولهم : « بطريق التبرع » فانه لزيادة الإيضاح . وبعضهم أخرج به الإقرار بالدين

لأجنبي ، فلو أقر في حياته بدين لآخر ثم مات ، كان ذلك الإقرار تمليكاً للدين بعد الموت . ولكن الواقع أن الإقرار ليس هو تمليكاً للدين ، وإنما هو إظهار لما في الذمة من حق مملوك للدائن من أول الأمر ، فهو خارج بلفظ التملك . ولا فرق في الموصى به بين أن يكون عينا أو منفعة . فإذا أوصى ببستان أو نقود أو غيرها فانه يصح ، كما إذا أوصى بمنفعة ذلك البستان من ثمر وغيره . ولا يشترط أن يصرح بلفظ الوصية ، كما لا يشترط أن يضيفها الى الموت لفظاً ؛ إنما الشرط أن يذكر لفظ الوصية أو ما يدل عليها . فإذا قال : لفلان ألف قرش مثلاً من ثلث مالي ، فإن ذلك يكون وصية ؛ أما إذا قال : من نصف مالي أو ربعه ، فإن ذلك لا يصح ، لأن الوصية لا تكون إلا من ثلث المال ، فلا دلالة في مثل هذه العبارة على الوصية .

وهذا التعريف قد وافق عليه بعض محققى المالكية بنصه ، ولكن المتهور في نص تعريف الوصية عندهم هو أنها « عقد يوجب حقاً في ثلث مال العاقد يلزم بموته ، أو يوجب نيابة عنه » . ومعنى الجزء الأول من هذا التعريف متفق عليه بينهما ، لأنه عبارة عن تملك مترتب على عقد التبرع بمال بعد الموت ، ولا يكون ذلك العقد لازماً إلا بعد الموت . ومعنى الجزء الثانى وهو قولهم : « أو يوجب نيابة عنه » أن عقد الوصية كما يوجب حقاً في ثلث المال بعد الموت كذلك يوجب نيابة عنه في التصرف في بعض الأمور بعد الموت ، كأن يوصى بأن يقوم شخص على أولاده الصغار بعد الموت ، أو يزوج بناته ، أو يفرق ثلث ماله ، أو يقوم بنجيزه ودفنه بصفة خاصة ، أو نحو ذلك . والوصية بهذا المعنى تكون إيضاء بمعنى إقامة الوصى . فالوصية عندهم عقد يوجب حقاً في مال المتوفى ، أو يوجب النيابة عنه في بعض الشؤون . والمالكية يشترطون في صيغة الوصية أن تكون مشتملة على ما يدل على الوصية من لفظ صريح : كأوصيت ، أو غير صريح ولكن تفهم منه الوصية بالقرينة : كأعطوا لفلان كذا بعد موتى .

أما الشافعية فقد عرفوا الوصية بأنها « عقد تبرع بحق مضاف الى ما بعد الموت » سواء أضاف ذلك التبرع الى الموت لفظاً أولاً . ويشترط عندهم أن تكون بلفظ يدل على الوصية صريحاً أو كناية ، فمثال الصريح : أوصيت بكذا لفلان ، أو أعطوه كذا ، أو هذا المال لفلان بعد موتى ، أو هو له هبة بعد موتى ؛ فكل ذلك ونحوه وصية صريحة . وأما الكناية فكان يقول : لفلان كذا من مالي ، ولم يذكر بعد الموت .

ومما لا يخفاء فيه أن الوصية تطلق في اللغة على الإيضاء بمعنى إقامة الوصى ، كما تطلق على ما يوصى به من مال أو غيره . وهذا المعنى لم يختلف مع المعنى الشرعى في الواقع ، لأن الشارع يعتبر إقامة الوصى وصية ، كما يعتبر العقد الذى يدل على تملك الموصى به شيئاً من مال أو غيره وصية . فإذا لوحظ هذا المعنى كان متفقاً عليه عند الجميع . والحنفية يقولون :

إن لفظ التملك الذي ذكر في التعريف يتناول تملك المال وغيره ، ولا فرق في هذا بين تملك وصى أو غيره .

أما حكم الوصية : فقد اتفقت الأئمة الأربعة على أن الوصية ليست بواجبة ، ولكن قد تكون واجبة لأمر خارج عنها ، وذلك كما إذا كان عليه دين أو عنده وديعة يخشى أن تضيع على صاحبها فانه يجب عليه أن يوصى بردها الى صاحبها ، كما يجب عليه أن يوصى بسداد دينه ولو كان مؤجلا . فالوصية إنما تجب إذا أريد منها أداء حقوق الغير الواجبة . وإنما تجب في هذه الحالة إذا عجز عن تنجيز ما عليه ، ولم يكن لصاحب الحق مستند يمكنه أن يثبت به حقه . وقد تكون الوصية مندوبة ، وذلك فيما إذا رجا منها كثرة الأجر . وتكون مكروهة إذا لم يرج منها كثرة الأجر ، وذلك كأن يكون انتفاع الورثة بها أكثر . وتكون مباحة إذا استوى عنده الأمران . وتكون محرمة إذا ترتب عليها إضرار بالورثة ؛ فقد روى عن ابن عباس أن الإضرار في الوصية من الكبائر . على أن بعض المجتهدين يقول إن الوصية واجبة على أى حال ، بحيث إذا كان لدى الشخص مال فانه يجب عليه أن يوصى . ومن هؤلاء داود وإسحاق . واختار هذا القول أبو عوانة الأسفراينى وابن جرير وغيرهم . ولكن جمهور المجتهدين يرى أنها ليست بواجبة ، حتى قال بعضهم : إن الإجماع قد انعقد على أنها ليست بواجبة سوى من شذ . وبذلك تعلم أن رأى الممول عليه هو ما قررناه لك من أنها تارة تكون واجبة ، وتارة تكون محرمة ، وتارة تكون مندوبة .

ولنذكر هاهنا أمثلة مما تصح الوصية فيه ، ومما لا تصح عند الأئمة الأربعة : فتصح الوصية بالحج باتفاقهم جميعا ؛ فإذا أوصى شخص بأن يحج عنه بعد موته ، فإن وصيته تصح ، ويجب تنفيذها من ثلث ماله . وبعض أئمة الحنفية يرى أن من لم يحج حجة الفريضة فانه يجب عليه أن يوصى بها .

ولا تصح الوصية بقراءة القرآن على القبور أو فى المنازل ، وتقع باطلة عند الحنفية . هذا إذا لم يعين شخصا يقرأ على قبره أو فى منزله ، كأن يقول : أوصيت لمحمد أو لعلى أن يقرأ على القبر الذى أدفن فيه ، ونحو ذلك ؛ فإذا عين شخصا يقرأ فان فى ذلك خلافا ، فبعض الحنفية يقول : لا تصح الوصية أيضا مع هذا التعيين ؛ وبعضهم يقول : إنها تصح بشرط أن يأخذ المال الموصى به بطريق البر والصلة ، لا بطريق الأجرة على القراءة .

ومثل الوصية بالقراءة ، الوصية بالتهليل (العتاقة) المعروفة عند الناس ، فان الوصية بها باطلة إذا لم يعين شخصا ؛ فإذا عين شخصا ، جرى فيها الخلاف المتقدم . وقد خالفهم فى ذلك المالكية والشافعية ، فقالوا : إن الوصية لمن يقرأ على القبر أو فى المنزل تصح ، ويجب تنفيذها ، كالوصية بالحج ، لا فرق فى ذلك بين أن يعين الشخص الموصى له أو لم يعينه .

ولا تصح الوصية بالبناء على القبور ، فإذا أوصى بأن يشيد على قبره بناء تقع الوصية باطلة بلا خلاف . نعم تصح برم القبر الذى يوضع فيه الجسم إذا تهدم بشرط أن لا يبنى عليه بناء مرتفع كالمنازل مما يفعله الناس فى زماننا . نعم تصح الوصية ببناء ما يميز القبر ؛ وحده بعض الأئمة بمقدار شبر ، وبعضهم بمقدار ذراع ، ونحو ذلك .

ولا تصح الوصية بأن ينقل من الموضع الذى مات فيه الى موضع آخر ؛ وإذا نقله الوصى وأنفق عليه يكون ملزماً بما أنفق من ماله لا من التركة ، إلا إذا أجازته الورثة . وإذا أوصى بأن يدفن فى داره بطلت وصيته ، إلا أن تجعل داره مقبرة للمسلمين .

وإذا أوصى بمبلغ كبير يشتري به كفنه فإنه لا يعمل به ، ويكفن بكفن المثل .

وإذا أوصى بمصاحف توضع فى المسجد ، فإن وصيته تكون باطلة عند أبى حنيفة .

وبالجملة : فالوصية لا تصح إلا إذا كانت متعلقة بأمر من الأمور التى يميزها الشارع .

(٢) هذا معنى الوصية وحكمها . أما شرح ألفاظ الحديث فظاهرة ، لأن سعد بن أبى وقاص سافر من المدينة الى مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، فرض سعد بمكة مرضاً شديداً حتى ظن أنه سيموت بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ، ويود أن يموت بالمدينة التى هاجر إليها ، فعاده النبي صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : يرحم الله ابن عفراء ! يريد به سعد بن خولة ، وعفراء اسم أمه على التحقيق ، وخولة اسم أبيه ؛ وإنما قال ذلك صلى الله عليه وسلم ، لأن سعد بن خولة توفى بمكة بعد أن هاجر الى المدينة ، فكان عليه الصلاة والسلام يرثى له ، وقد ذكره لمناسبة كراهية سعد بن أبى وقاص الدفن بمكة .

وقوله : « إنك إن تدع » بكسر إن على الشرطية ، وجواب الشرط قوله « خير من أن تدعهم » ، ولا يضر حذف الفاء من الجواب ، لأن ذلك قد ورد عن العرب ، بل ورد فى كلام رسول الله حيث قال : « البينة والإحد في ظهرك » . وقوله : « عالة » جمع عال ، ومعناه الفقير ، تقول : عال فلان يعيل ، إذ افتقر . وقوله : « يتكففون الناس فى أيديهم » : يسألون الناس بأ كفهم ؛ يقال : تكفف الناس : إذا بسط كفهم للسؤال ، أو سأل وضع الصدقة فى كفهم ، أو سأل كفاً من طعام . وقوله : « فى أيديهم » معناه بأيديهم . وقوله : « وعسى الله أن يرفعك » معناه : يطيل عمرك . وبذلك تعلم أن قوله فى الحديث : « وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها » المراد به سعد بن أبى وقاص راوى الحديث ، وكان الظاهر أن يقول : وأنا أكره أن أموت بالأرض التى هاجرت منها ، ولكنه عبر بهذه العبارة بطريق الالتفات . والدليل على ذلك ما صرح به فى حديث آخر رواه البخارى ، وإن كان يحتمل هنا أن الضمير عائذ الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها كما يكره سعد . وقد تحقق إخبار الرسول

صلوات الله عليه بذلك ، فإن سعدا قد عاش بعهد ذلك طويلا ، حتى إنه قاد الجيش الذى فتح مدائن كسرى فى عهد سيدنا عمر ، وورث أولادا كثيرين نحو عشرة من ذكور وإناث .

(٣) أما بيان ماتضمنه الحديث من مراعاة حقوق الوارث فأمره ظاهر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان دائما يحث الناس على أداء حقوق من يعولون . وقد ورد حديث صريح فى ذلك ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول » . وهذا الحديث الذى معنا صريح فى ذلك ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال : « مهما أنفقت من نفقة فانها صدقة حتى اللقمة ترفعها الى فى امرأتك » . فهذا صريح فى مراعاة حال الورثة الذين يتركهم بعده . وإذا كان الشارع قد أمر بمراعاة حال الورثة فى أعمال الخير والبر ، فمن باب أولى مراعاة حالهم فى الإنفاق ، فليس من الحسن أن تستهوى الشهوات المرء فتسوقه الى تبذير المال وإنفاقه ذات اليمين وذات الشمال حتى ينفد ويترك ورثته فى ضنك وبؤس وشقاء ؛ ومن يفعل ذلك كان آثما لا محالة ؛ ولا بد أن يسأل عن ذلك يوم لا تنفعه الشهوات التى قد انقضت كأنها لم تكن ، ويدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يجوز ابن آدم الصراط حتى يسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه » ؛ وقوله تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . فالخير كل الخير أن يعمل الانسان بقوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » ؟

عبد الرحمن الجزيري

قيمة العمل عند المسلمين

قال الله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ؛ ولغدوة فى طلب العلم أجدر الى الله من مائة غدوة ؛ ولا يخرج أحد فى طلب العلم إلا ومملك موكل به يبشره بالجنة ؛ ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة » .

وقال على رضى الله عنه : « أقل الناس قيمة أقلهم علما » .

وقال سهل بن عبد الله التستري : « ما عصى الله أحد بمعصية أشد من الجهل » .

ف قيل يا أبا محمد : هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل مطية من ركبها زل ، ومن صحبها ذل .

وقال على رضى الله عنه : « الحكمة ضالة المؤمن فالتقفها ولو من أفواه المشركين » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هلاك أمتى فى شيئين : ترك العلم ، وجمع المال » .

مكان الزكاة في الاسلام

من الشؤون الاجتماعية

إن للمجتمعات شئونها بإصلاح المجتمعات ، وبفسادها تفسد المجتمعات ؛ ولا نعلم أمة عنيت بشئونها الاجتماعية ، فأصاحتها وركزتها على نظم قوية مثمرة ، إلا تماسكت حياتها ، واضطرت عزتها ؛ وكذلك لا نعلم أمة أهملت تنظيم شئونها الاجتماعية إلا تمكنت منها روح الفوضى ، وتأخرت في مضمار التسابق الاجتماعي ، ثم عاجلها الله بالفناء أو الدل والاستعباد : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

هذا مبدأ شهد به التاريخ ، وأرشدت اليه المَـسَلات ، ولفت اليه القرآن ، ونوّه به في غير آية : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » .

بهذا المبدأ آمن حضرة صاحب الجلالة مولانا ملك مصر ، الذي تغذى بلبان الإصلاح النقية ، فرأى ، حفظه الله ، أن صلاح أمته لا يكون إلا عن طريق إصلاح شئونها الاجتماعية ، فأنشأ لأول مرة في تاريخ مصر حديثه وقديمه ، وزارة حملها تنظيم هذه الشؤون ، على وجه تتخذ به الأمة سبيلها الى الحياة الطيبة والعيش الرغيد .

ويسرنى ، كما يسر المصريين جميعاً ، أن هذه الوزارة تؤمن بأن لكل مجتمع طابعا خاصا ، ترسمه له قوميته الخاصة التي يكونها دين المجتمع ، ولغته ، وتقاليده الطيبة ، فتقدر أن إصلاح الشؤون الاجتماعية لكل مجتمع لا بد أن يكون بإيحاء القومية الخاصة لذلك المجتمع ، وأن إيحاء القوميات المختلفة بطرق الإصلاح الاجتماعي ، لا يمكن أن يكون واحدا في جميع المجتمعات ، فأصلاح اجتماع غربي لا يكون طريقه طريقا لإصلاح اجتماع شرقي ، وإصلاح اجتماع غير متدين لا يكون طريقه طريقا لإصلاح اجتماع متدين .

على هذا الأساس يجب أن تستقبل وزارة الشؤون الجديدة عملها ، فتنتجه الى الإيحاء القومي فيما يختص بالدين الى أهل الدين ، وفيما يختص بالأخلاق والتقاليد الى أهل الأخلاق والتقاليد ، وفيما يختص بالصحة والنشاط البدني الى أهل الصحة والنشاط البدني ، وفيما يختص بالاقتصاد والتدبير الى أهل الاقتصاد والتدبير .

وبهذا تتنوع لجان العمل ، وتتمثل فيها طوائف الاختصاصيين في الشؤون الاجتماعية ،
بمناصر تبنى إحياء قوميتنا الخاصة ، كل فيما يختص بدائرتها .

ويجب أن يكون هذا عهدا بين الوزارة وهذه العناصر ، يوجب أولاً على هذه العناصر
أن تعمل جهدها مخلصاً في تحرى إحياء القومية الخاصة ، ويوجب ثانياً على الوزارة ، إذا
ما تحققت من صلاح المقترح ، أن تعمل بكل ما منحت من إمداد مليسكها المصالح ، على
تنفيذ ذلك المقترح ، وإسداء نفعه وخيره للبلاد .

وليجعل الجميع نصب عينيه قوله تعالى : « وَتَسَاوَوْا عَلَى السَّبْرِ وَالتَّقْوَى » وقوله
تعالى : « وَالْعَصْر ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ،
وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

وعلى هذا الأساس أتحدث عن مكان الزكاة الاسلامية من الشؤون الاجتماعية ، وبعبارة
أخرى : عن الصلة التي وضعها الاسلام لتنظيم العلاقة بين الأغنياء والفقراء ، والمصالح العامة
التي تتوقف عليها نهضة الأمة وتقدمها . ويجب أن نعلم هنا أن الاسلام ليس ديناً روحياً
فردياً ، تنحصر مهمته في صرف الانسان عن دنياه الى أخراه ، وإنما هو دين اجتماعي قبل
كل شيء . . . دين له في كل شأن من شؤون الاجتماع تنظيم تقصر دونه عقول الحكماء
والفلاسفة ، دين مهمته أن يأخذ بالانسان الى السعادة في الحياتين ، وأن يوجهه الى العمل للدنيا
كأنه يعيش أبداً ، وإلى العمل للأخرى كأنه يموت غداً : « من كان يريد ثواب الدنيا ،
فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » . دين يرى أن سعادة الآخرة من سعادة الدنيا ، وأن سعادة
الآخرة تتطلب قوة في الحق ، ونهضة في العمل الصالح ، ورغبة في عمل الخير ، وأن من كان
في هذه الدنيا أعمى عما تتطلبه الآخرة فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً . . .

وسيطل المسلمون في جميع بقاع الأرض حيارى مضطربين ، الى أن يفهموا علاقة دينهم
بالحياة الاجتماعية ، ويستقبلوا تعاليمه ، ويتخذوها عدوة في حياتهم ، وطريقاً لسعادتهم .

وهذه الزكاة ، التي جعلها الاسلام عبادة من العبادات ، وركناً من أركان الدين ، سيري
فيها حضرات القراء أن الاسلام حتى في عباداته لم يسكن إلا تهذيباً للفطرة الانسانية ، وتنظيماً
لشؤون الجماعة .

بنى الاسلام في العقيدة والعبادة على أركان خمسة : التوحيد ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ،
والحج . ويطول بنا القول إذا بيننا علاقة كل هذه الأركان بالشؤون الاجتماعية . ونجتزئ الآن
بأن التوحيد هو الركن القلبي الذي يشاد عليه صرح الخير كله . والصلاة والصوم ركنان
بدنيان قصد بهما إعداد النفوس لعمل الخير ، والدعوة اليه . والزكاة ركن مالى قصد به تنظيم

شأن اجتماعي عظيم له خطره في حياة الأمم ، وأخلاق الأفراد ، وهو علاقة الأغنياء بالفقراء ، وبمصلح المجتمع .

قضت الحكمة الإلهية ، أن يكون الناس مختلفين في الدرجات ، متفاوتين في الغنى والفقر ؛ وقضت بأن يعيش بعضهم تحت ظل البعض ، يعمل له ، ويستمد رزقه من رزقه : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ... »

وعلى هذا النظام الاجتماعي ، قامت الأعمال ، ودارت الحركات ، واشتدت المنافسات حول الحصول على العيش ، والارتقاء ؛ ولكن الشح الذي طبع عليه الإنسان جعل من اختلاف الناس في المواهب والاستعداد ، وتفاوتهم بالغنى والفقر ، سبباً في مرض اجتماعي خطير : ذلك أنه شغل الأغنياء بأموالهم حتى ألهمهم عن حق الفقير والمسكين ، والعامل والضعيف ، ونمت فيهم فكرة الأثرة والاستغلال ، وأحس الفقير بضيق في صدره أخذ يتلمس له طريقاً للخروج فلم يجد سبيلاً ، فتولد عنده حقد على الغنى لم يلبث أن انفجرت به صدور الفقراء ناراً حامية يصطلبها أرباب الأموال ، وقاموا ينادون في بعض الأمم المتحضرة ، بإلغاء نظام الملكية الفردية ، فاضطرب حبل الجماعة ، واختل توازنها ، وانتهى الأمر بهم إلى إنكار الأديان والقوانين ، وأريق في ذلك دماء الملايين من النفوس البشرية . وما كان ذلك إلا نتيجة إهمال الغنى لحق الفقير ، واستغلاله لمنفعته الشخصية ... !

أما الاسلام فقد قدر ، وهو في أول مرحلة من مراحل الدعوة ، قبل تهيئة النفوس للنظم والقوانين — خطر إهمال حق الفقير ، كما قدر فوضى النظام وفساد الاجتماع إذا هو ألغى الملكية الفردية ؛ فأقر الملكية الفردية ، وأجرى سنة الكون في مجراها الطبيعي ؛ ثم وضع الطرق الواقية من شر الطغيان المالي ، القاضي بتحكم أرباب الأموال ، واستغلال الفقراء . وبهذا احتفظ بسنة القوانين ، وأصول الجماعات والحقوق الفردية ، وأمن في الوقت نفسه فتنة الفوضى الشيوعية ، فوقف وسطاً بين الإفراط والتفريط ، شأنه في كل تشريع : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وإني أحدثكم عن مجمل المبادئ التي اتخذها القرآن في العهدين : عهد الدعوة بمكة ، وعهد التقنين بالمدينة ، اتخذها علاجاً لتلك المشكلة الاجتماعية الخطيرة :

أعلن القرآن أن المال في يد الأغنياء ليس إلا وديعة الله ، استخلفهم في حفظه وإدارته ، وتوزيعه بما رسم لهم من طرق صالحة مفيدة : « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » ، « وآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ » .

أشعرهم بالوحدة القومية الموجبة للتكافل والتعاون والإيثار ، وأن المال المملوك للبعض قوام المجتمع كله : « وَلَا تَتَّبِعُوا السَّهَافَةَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » .

حارب فيهم خلق الشح الذي يمنع من التراحم والبذل، ومساعدة الضعيف : « وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زَكَاةَ أَنْفُسِكُمْ أَنْ هِيَ لَكُمْ سُلُوكًا مَسْرُوعًا » ، « وَأَمْرٌ بِالْبَخْلِ فَبَخُلُوا ، وَأَمْرٌ بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا » ، « اتَّقُوا الظِّلْمَ فَإِنَّ الظِّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، « وَاتَّقُوا الشَّحَّ فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ : جَاهَهُمْ عَلَى أَنْ يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ وَيَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَهُمْ » . ولعلك لا تجد أصرح ولا أقوى من هذا التعبير في تصوير الخطر الاجتماعي الذي ينبعث من الشح بحق الفقير والمحتاج . والشح بلا ريب من أكبر الآفات التي تضر بالمجتمع الانساني ، وتقضى على حياة الأمم وصالح العمران ؛ فهو يمنع التعاون والتراحم ، ويفرس الحقد ، ويولد ثورة النفوس ، ويرمى بالمجتمعات في الهوآت السحيقة .

هدد الأغنياء إذا هم قصروا في حق الفقير ، واستغلوا حاجته لمنفعتهم الشخصية : « يَحْقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُؤْثِرُ بِی الصَّدَقَاتِ » ، « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » . « وَيَلْ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنَ الْفُقَرَاءِ ! » « إِنْ الصَّدَقَةُ تُدْفَعُ بِالْبَلَاءِ » « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » . وإنا لنندع تفسير هذه الحرب التي آذن الله بها المستغلين ، وتفسير ذلك الويل الذي يصيب الأغنياء من الفقراء ، وتفسير ذلك البلاء الذي تدفعه الصدقة ، وتفسير مصارع السوء التي تقي الانسان منها صنائع المعروف ، ندع تفسير كل ذلك الى ما هو الواقع الآن في أمم الحضارة من حرب الطبقات ، والى ما تنطق به الحوادث والوقائع ، فانه أعظم مفسر يتلأشى أمام روعته البيانية ، كل مقال وبيان .

حرك العواطف ، ونثب الوجدان الى العطف الانساني ، والعدة عليه بالثواب والحياة الطيبة . وحسبك في عناية القرآن الكريم بالفقير والمسكين ، والحث على إطعامهما ، والقيام بكفائتهما ، أنك لا تكاد تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها ذكر للفقير والمسكين ، أو ذكر لأحدهما .

جعل لها حقاً في الصدقات المفروضة (١) ، جعل لها حقاً في الغنيمة (٢) ، جعل لها حقاً في الفئ الذي يمكن الله منه جماعة المسلمين من غير قتال (٣) ، جعل لها حقاً في المال إذا اقتسمه أربابه بمحض منهما (٤) ، جعل لها كفارة اليمين (٥) ، جعل لها كفارة اعتداء المحرم على الصيد (٦) ، جعل لها كفارة الظهار (٧) ، جعل لها فدية الإفطار في نهار رمضان (٨) .

(١) ارجع الى الآية ٦٠ من التوبة (٢) ارجع الى الآية ٤١ من الانفال (٣) ارجع الى الآية ٧ من الحشر (٤) ارجع الى الآية ٨ من النساء (٥) ارجع الى الآية ٨٩ من المائدة (٦) ارجع الى الآية ٩٥ من المائدة (٧) ارجع الى الآية ٢ من المجادلة (٨) ارجع الى الآية ١٨٤ من البقرة .

وقد بين الحكمة الاجتماعية السامية ، في إعطائهم هذا العطاء ، وهي الخوف من أن يستأثر بالأموال طائفة الأغنياء يتداولونها في أيديهم خاصة ، فيمير الفقراء عليهم حربا طاحنة ، وذلك قوله في آية النى : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

ثم يجعل العطف عليهما بعد ذلك ، والقيام بحقوقهما ، من خصال البر الدالة على صدق الإيمان والتقوى : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » .

ثم يمتدح الصدقات بوجه عام ، ويبين أنها خير للجاعة غير محدود ، أعلنت أم خفيت : « إن تبدوا الصدقات فنعما هي ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » .

ثم يبالغ فى الوصية باليتامى والمساكين ، فيقرنها بتوحيد الله والإحسان الى الوالدين ، فى غير آية ؛ اقرأ : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين » ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا » . ثم يقول : « وآت ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل » .

ثم ينبه الناس على ما يصرفهم عن مراعاة حق الفقير والمساكين ، فيذكر البخلاء ، والآمرين بالبخل ، ويذكر العذاب المهيئ ، الذى أعد للكافرين الذين خلت قلوبهم من الرحمة : « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا » .

ولما كان التبذير من أسباب فقدان المال وحرمان الفقير ، شدّد التنكير على المبذرين ، وبين سوء عاقبتهم ، فقال : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » . ومخافة أن يحمل ذلك البيان على التقدير فيمنع حق الفقير ، أرشد سبحانه الى الطريق المعتدل فقال : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

ثم تعاملوا واستمعوا بعد ذلك الى القرآن ، وهو يعتبر أن إطعام الفقير والمساكين هو العقبة الوحيدة ، التى إذا اقتحمها الانسان وصل الى السعادة الحقة ، التى لا يشوبها تنغيص ولا ألم : « فَلَا أَقْتَحِمُ الْعَقَبَةَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ : فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة » .

حسب الفقير أن الله لم يذكر فى كتابه شانا من الشئون باسم العقبة إلا فى هذا الموضع ،

موضع تنظيم علاقته بالغنى ، فافروا القرآن وتبعوه لتعلموا مقدار حذب القرآن على الفقير والمحتاج والضعيف .

اسمعوا قول الله فيمن لا يحض على طعام المسكين ، وكيف اعتبرهم من المكذبين بالدين ، الذين لا تنفعهم صلاة ولا خشوع : « أرايت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين . فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

اسمعوا قول الله فى المجرم الذى يصيبه خزي الله ونكاله : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حريم . ولا طعام إلا من غسلني . لا يأكله إلا الخاطئون » .

اسمعوا قول الله فيمن يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله : « والذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم » .

اسمعوا قوله فى أرباب الأموال الذين لا يقومون بحق الفقير والمسكين : « كلاً ! بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون الثراث أكلاً لمأ . وتُحبون المال حباً جماً . كلاً إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجىء يومئذٍ بحجهم ، يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول ياليتنى قدمت لحياتى . فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد » .

ثم تعالوا واسمعوا جواب المجرمين حين يسألون يوم القيامة : « ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين » . . .

وأخيراً تعالوا واسمعوا قول الله فى أرباب الأموال الذين يحترفون التكاثر فيها حتى تلهيهم عن حق الفقير والمسكين : « ألهاكم الشكاثر ، حتى زرتهم المقابر ، كلاً سوف تعلمون . ثم كلاً سوف تعلمون . كلاً لو تعلمون علم اليقين . لتروُنَّ الجحيم . ثم لتروُنَّها عين اليقين . ثم لتسألنَّ يومئذٍ عن النعيم » . . . هذا نزر قليل من علاج القرآن لمشكلة الفقير مع الغنى .

حرك عواطف الأغنياء بكل الطرق ، وأرهف وجدانهم ، واستدر عطفهم على الفقير والمسكين ، إصلاحاً لهم وللمجموعة ، تارة بالترغيب ، وأخرى بالترهيب . وبعد أن استتب الأمر لجماعة المسلمين ، وتهبأت النفوس للقوانين والنظم ، وضع للفقراء حقوقاً كمورد دائم .

وضعه في السكفارات ، والاجزية على الأخطاء التي يرتكبها الانسان في حياته الشخصية أو عباداته ، وضعه في الزكاة فرضا من الفروض الدينية ، ينفذه بالقوة ويقاقل من امتنع من أدائه ، وضعه في الذهب والفضة ، وفي البضائع التجارية ، وفي المواشي ، وفي الزرع ، بنسب لا ترهق الغنى ، وتسعف المسكين والفقر ، وتصلح شأنه ؛ بنسب يفوق مجموعها ما يصرفه أغنيائنا في ترفهم وبذخهم في البلاد الأجنبية كل عام من غير فائدة تعود عليهم وعلى أمتهم .

وقد كان للزكاة في صدر الاسلام نظام خاص ، وكان للحكام بها عناية خاصة في جمعها وصرفها . كانوا يجهزون الجيوش ، ويدفعون المغارم ، وينالون قلوب الضعفاء ، ويعينون المحتاجين . أما اليوم فقد خف عن كاهل الزكاة كثير تصرفه الدولة من مواردها الخاصة على المصالح العامة ، كالجيش والتعليم ، ولم يبق ما يخشى شره ، ويهدد العالم بشورته سوى الفقير وحاجته .

فهل للأغنياء أن يخرجوا هذه الزكاة الواجبة عليهم ، ويصرفوها في مصالح الفقير ، فيسئلوا بها حقه عليهم ، ويصير عوناً لهم ، يحرس أموالهم ، ويعمل على تنميتها ، حتى يرفرف على الجميع علم الطمأنينة والسلام ؟ !

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم ، وينشئوا بها المصانع والمستشفيات التي لا تفي موارد الدولة بإنشائها ، فتطهر الأمة من جراثيم المرض ، ويخفف عنها ضغط هذا الجيش العاقل الذي تبدو كتائبه في المتسولين الذين يملأون الشوارع والأزقة ، وفي المتشردين الذين يهددون الأمن ، ويقلقون راحة الجميع ، وفي المتعلمين وأنصاف المتعلمين وأشباههم ، مما تظالغنا بأحصائهم في كل عام نتائج الامتحانات ، وكشوف المنقطعين عن طلب العلم ؟ !

هل لهم أن يخرجوا زكاة أموالهم فيصلحوا من شأن هؤلاء ، ويوجدوا منهم رجالاً عاملين في الحياة ، يشعرون بالعزة والكرامة ، ويشعرون بأنهم أعضاء حية من الأمة لها يعملون ، وغنها يسألون ؟ !

هل لهم أن يضعوا أيديهم في يد وزارة الشؤون الاجتماعية ويتضامنوا معها على إخراج نظام خاص للزكاة والصدقات ، به ينتشون البلاد من خطر الفقر والعاقل ، فتطمئن الجماعة على حياتها ، وتنتفع بأموالها وبنيتها ؟ !

إن الدين الاسلامي لم يترك فرصة لإحياء قلب الفقير إلا أمر بانتهازها . ولا يغيب عنكم أيها الأغنياء موقفه من الفقير عقب صيام رمضان ، في الوقت الذي تعدون فيه العدة لاستقبال العيد ، الذي جملة الله مظهر فرح شامل ، لم يفته أن أوجب صدقة الفطر توزع على الفقراء والمساكين ، فيكون لهم منها سلوة عما أصابهم من فقر ومسكنة .

فإذا قامت وزارة الشؤون الاجتماعية ، تدعو الناس الى المبادرة باخراج زكاة الفطر إصلاحا لشأن له خطره في المجتمع ، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين ، واجب يحتمه عليها الاجتماع الصالح الذي تنشده وتعمل عليه . وإذا قامت تدعو الناس الى إبداع صدقاتهم في صناديق تشرف عليها جهات نزيهة ، وتصرفه على الأمر التي أخنى عليها الدهر ، ويمنعها الحياء من الظهور بمظهر السائل والمحروم ، فقد قامت بواجب يحتمه عليها الدين ، واجب يحتمه عليها المجتمع الصالح الذي تنشده وتعمل عليه . وقد ذكر الله الفقراء الذين لا يستطيعون ضربا في الأرض وأن الجاهل يحسبهم أغنياء من التعفف : « لا يسألون الناس إلحافاً » . وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل على صدقة الفطر ذلك الصحابي الجليل أبا هريرة ، على الأسرة الكريمة التي يمنعها حياؤها عن أن تسأل ... فلم تفعل وزارة الاجتماع إلا ترسيما لخطة الصدر الأول في إعانة الفقير ، والمحافظة على كرامته .

هذه مكانة الزكاة والصدقات من الشؤون الاجتماعية ، وهي مكانة القطب من الرحي . وهذا هو موقف الاسلام من الزكاة والصدقات ، وهو موقف يخفف من وطأة الأغنياء على الفقراء ، ويبعث في الفقراء روحا طيبة للأغنياء ، ويهيئ للجماعة أن تنفع بهؤلاء وهؤلاء .
وبعد : فليسمح لي حضرات الأمراء ، والأغنياء ، والمفكرين ، أن أصارحهم بكلمة صريحة حاسمة :

إن التطور الفكري المتناقض ، قد تكاملت أسبابه ، وبدت مظاهره ، وصرنا به على ملتقى السبل ، فإما أن نسير في سبيل الرأسمالية ، كما يلوح في أفق الأغنياء ، فنصطبها نارا حامية من العاطلين والفقراء ، وإما أن نسير في سبيل الشيوعية ، كما يلوح من أنات العاطلين والفقراء ، فنصطبها تخريبا وتدميرا !! ولقد جاءنا من الأنباء ما فيه مزدجر ، وأرشدنا ديننا ، وكتابه قائم بين أيدينا ، الى السبيل السوي الذي يقينا شر هذه ، وشر تلك ، ويجعل الأمة وحدة متكافئة في البر والتقوى : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

محمد سلنوت

أنبل الاغتراف الاسلامية

لعل مما يستلفت النظر ، ويبهز العقول ، من غيث الرحمة الاسلامية ، الذى أدرك العالم ، وقد مزقه الفساد ، وقوضته الفوضى فى كل شىء : فى الانفس ، والأعراض ، والأموال ، ولوث النفوس فيه داء الأثرة ، والطمع ، ورذيلة الغدر والخيانة ، الى غير ذلك من عوامل الفناء والشقاء ، نقول : إن أنبل ما يبهز العقول مما جاء به الاسلام من الأخلاق ، المحافظة على العهد ، والصدق فى احترام الموائيق ، والتحذير من نكثها ، والوعيد الشديد على الخيس بها ، والحنت فيها ، لتصفو العلاقات بين الافراد والجماعات ، وتطمئن النفوس ، وتحسن الصلات بين الأمم ، وتسير فى جو كله هدى ونور ، لا غدر فيه ولا خيانة ، فيتسع بذلك طريق الحق ، يسبح كيف يشاء ، وأنى شاء ، يعتمر البلاد ، ويصلح العباد .

مرت على الإنسان دهور طويلة ، وتقلب عليه أطوار وأحوال ، وغشيت غشاوش ، وأحاطته أحداث ، وطال إنقاذه مصلحون كثيرون ، وأرسل الله رسلا مبشرين ومنذرين . . . فأى دين من الأديان ، أو شريعة من الشرائع ، عنيت عناية الاسلام بالمحافظة على العهود والموائيق ؟ فهذا كتابه الكريم ، يجعل حفظ العهد من دعائم الفلاح والسعادة ، حيث يقول : « قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون » الى قوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وها هو ذا رسول الاسلام ، يرفع من شأن المحافظة على العهد ، واحترام الميثاق ، فيوجب على جميع من يدينون به أن يحترموا عهدا أعطاه للأعداء أقل رجل مسلم ، وتوعد بالشقاء فى الدنيا ، والعذاب الشديد فى الآخرة ، من فرط فى ذلك ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ذمة المسلمين واحدة ، يسعى (١) بها أذناهم ، فمن أخفر (٢) مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف (٣) ولا عدل » .

وقال أيضا : « ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء : من عاهدته فوف بعهد ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فيصلها ، مسلما كان أو كافرا ، ومن ائتمنك على أمانة فأدها اليه ، مسلما كان أو كافرا »

فهل سمع العالم قديمه وحديثه ، بدين أو شرعة ساوت بين جميع أتباعها فى احترام عهودهم ،

(١) أى يتصرف فيها . (٢) أى نقض عهده الذى أعطاه لغيره . (٣) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية . وقيل الصرف : الشفاعة ، والعدل : الفدية .

ووجوب تنفيذها ، ولم تفرق في ذلك بين عهد القائد والجندى ، والصغير والكبير ، والحر والعبد ، والرجل والمرأة ؟ فكل أولئك محترم عهده ، نافذ على جميع من عداه من المسلمين . هذا فضلا عما تضمنه هذا المبدأ السامى من تربية ملكة الإحساس بالكرامة فى نفس كل مسلم ، وإيقاظ الشعور بعزة النفس ، والاعتماد بالرأى ، وتحمل المسئوليات ، فيقوى تفكيره ، وينضج رأيه ، وتسمو عن الصفات نفسه .

فهل يصبر المنصفون بهذا النبل فى الاسلام ، بعد ما ملأ أسماعهم ، وشخص أمام أعينهم ، ما يزر به محيط العالم المادى اليوم ، من تهالك عبادة المادة ، وعشاق السيطرة الغاشمة ، على تمزيق العهد بعد توكيدها ، وانتهاك حرمة الموائيق التى أغلظوا الايمان على احترامها ، وسجلتها هياكلهم النيابية ، وأقرها وزراؤهم ؟ ! يرتكبون كل ذلك ، ويفخرون به إن رأوا وراءه مغنا ولو حقيرا ، وأحسوا بضعف صاحب العهد ، وفقدته القدرة على صد طغيانهم !! أما الكرامة ... أما الشرف ... أما العظمة الصحيحة ... فكل أولئك لا يقام له وزن ، ولا يقدر له حساب !! ألم نشهد فى عصرنا هذا بعض من نفخه غرور القوة يقف على ربوة الاستهتار ، ويؤذن فى الناس بأن المعاهدات لا تعدو قصاصات أوراق لا يتمسك بها على غير ما تقع إلا الضعفاء ؟ ألم نر هؤلاء يعدون الغدر والخيانة من السكياسة ، والنظاير بالود وإضمار السكيد والإيذاء من السياسة ، حتى صار معروفا لديهم أن هناك معاهدات علنية ، ومن ورائها معاهدات سرية ، تنقضها عروة عروة ، وتهدمها لبنة لبنة ، وأصبح مقرر أن ليس للأقوياء أمان ، ولا لمهودم حفاظ ، ولا لموائيقهم حرمة ؟ !

كل هذا والاسلام واقف فى هذا الجو المظلم ، أبيض ناصعا ، يتلو على الناس كافة :
« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » .
فخرم على أتباعه أن يفاجئوا معاهديهم ، إذا أحسوا منهم خيانة ، أو يأخذوهم على غرة ، وأوجب عليهم إعلانهم بقطع العلائق ، وانقضاء حكم الميثاق ، حتى لا تكون هناك لمثوم ظنة ، ولا لمثقول عذر . ثم ينلو :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلناكم عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزوها من بعد قوة أنكانا (١) ، تنخذون أيمانكم دخلا (٢) بينكم ، أن تكون أمة هي أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

(١) الانسكان : جمع نسكت كحمل وأحمال . والنسكت : مانع ليعزل ثانية ، وهو منصوب على أنه مفعول ثان على تضمين نقض معنى جعل ، كما تقول : فرق الشيء أجزاء أى جعله أجزاء .
(٢) الدخل بفتح الدال والخاء : الدغل والنفس والخيانة .

فهل هناك نبل وسمو وراء هذا النبل وهذا السمو؟ كتاب يحفز أهله على الوفاء بالعهد، ويشعرهم مراقبة الله وحسابه، ويحظر عليهم الدّخل، والغش، والخيانة في الإيمان، ويحذرهم من أن يكونوا عبيد القوة، فيعاهدوا هذا إذا كان قويا، وينبذوا إليه عهده إذا رأوا من هو أقوى منه، أو يخذعوا خصومهم باليهود والإيمان حتى تحين لهم الفرص، فينقلبوا عليهم أعداء.

كل أولئك خلال شر وضعة، حرّمها الاسلام على أتباعه، تنزيها لهم، وتشريفا لأقدارهم، ورفعاً لمنزلتهم في نظر الكمال الخلق، والحق والفضيلة، التي لا تقوى عوامل الهدم على النيل منها، مهما تقلبت الاحوال، أو تغيرت العادات.

وهل يتصور عقل، أو يخطر على قلب بشر، أن يباغ تقديس العهد عند شرع من الشرائع حداً يتجتم فيه على المؤمن به أن يترك أخاه في الدين، وهو يستغيث به ويستنصره، يلتمه ظلم الكافرين، وتنازل منه قسوتهم تقتيلا وتشريدا، مع قدرته على نصرته، وصد عدوانهم عنه، وليس لكل ذلك من سبب سوى المحافظة على العهد الذي قطعه مع هؤلاء العادين، فلم يستطع منه فكاً، ولا عنه تحويلاً؟

«وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير». ذلك لأن الاسلام شرعة لا تعرف الغدر والخيانة، ولا تقر إلا السياسة العادلة التي يستوى فيها الاتباع والأعداء.

وإنما عني الاسلام هذه العناية بالمواثيق والإيمان، لأنها غالباً تكون وليدة تفكير عميق توزن فيه الأمور بدقة، وتقدر بحساب، وينظر فيه الى العواقب القريبة والبعيدة، ويضحي فيه بنزوات النفوس وشهواتها.

وبالجملة، فالحكم فيه - غالباً - يسعى وراء المصلحة الحقة، والعدالة المطلقة، بقدر الإمكان. فإذا لم يحصنها الشارع بما يحفظها، انطلق الشر من عقاله لآي بادرة ولو صغيرة، وجمحت سورة الغضب والطيش، وجلب الشيطان خيله ورجله، فزق الصلات، وقطع العلائق، وعاث في الأرض فساداً.

لكل ذلك يقول كتاب الاسلام، بعد أن أوصى وشدد بالمحافظة على العهود:

«إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

من كل هذا، ومن بعضه، نقف على قطرة من فيض فضل الله على الانسانية كافة، بهذا الشرع الحكيم، الذي انتفع به من آمن به ومن كفر، ومن أطاعه ومن عصاه، «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين».

عبد الجليل عيسى

شيخ معهد شبين الكوم

نظرات في المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء آثارها في الهيئات الاجتماعية

بعد وصول الانسانية من المستوى العقلي الى درجة تسمح لها بالتفكير في وسائل تحسين حالتها الاجتماعية ، عني أفراد من أهل البصر منها بتخيل نظم ظنوا أن الجماعات لو قامت عليها ، وأخذت بأصولها ، تنأى الى حالة أرفع مما هي عليها في حياتها الراهنة .

ولكن حياة الشعوب الاجتماعية تقوم على سنة طبيعية ثابتة من التطور التدريجي ، فلا يستطيع نقلها من حال الى حال بنظام يُبتكر أو برنامج يُتخيل . ومن هذا القبيل كانت جمهورية أفلاطون ، وسياسة أرسطو ، والمدينة الفاضلة للفارابي ، وكل ما حدث في القرون المتأخرة من المذاهب الاشتراكية والشيوعية والقوضوية . فمن أراد أن يعرف ما يفعله إطلاق العنان للاخيل في هذا المجال ، فليتنظر في الأصول التي تقوم عليها هذه المذاهب . فقد أتى كثير منها بأمور يأنف الضمير البشري أن يديرها التفانا ، كراي بعض الفرق الاشتراكية إبادة جميع الضعفاء وأصحاب العاهات حتى لا يبقى إلا الأقوياء على مكابدة الأعمال ، كي لا يكون المرضى والضعفاء عالة على المجتمع ؛ وكنسج بعضها أن يُحذف الزواج ويُجعل جميع النساء لجميع الرجال ، وما يولد من هذه المخالطات تستولى عليه الحكومة ، وتربيته على تفقتها ، ثم تقذف به الى المجتمع ليؤلف جيلا جديدا ، وهلم جرا ؛ وكنسجيم بعضها وجوب حذف الحكومة والدواوين وترك الناس لأنفسهم ينظمون شئونهم عرفيا ، زاعمين أن النواميس الطبيعية في تدبيرها العلاقات بين الناس ، خير من النظم والقوانين التي تضعها الحكومات . قيل كل هذا وكتب ؛ ولكن الأمم جرت على سجيئتها ، مكتشفة بالعوامل المحيطة بها ، ولم ترفع بهذه الخيالات رأسا .

الأمر الذي تقوم عليه فتننة غلاة الاشتراكيين هو دعواهم أن الفاقة المنتشرة بين الدهاء منشؤها سوء توزيع الثروة الاجتماعية ، وأنهم قد همدوا تحت ضوء العلوم الاقتصادية الى نظم لو اتبعت لعاش الناس جميعا في بحبوحة الرغد والرفاهية . وأشد هذه المذاهب تمسحا وتزبدا الشيوعية ، وقد وقعت في حبالها جماعات فازدادت تغلغلا في السُدم والجاهلية .

ونحن إن اقتصصناها بالكلام في هذا البحث فليس ذلك باعتبار أنها شكل حكومي لامة بعينها ، ولكن باعتبار أنها مذهب أصبحت له دعوة ودعاة يروجونه ما وجدوا آذانا تصغي اليهم .

الأصول التي تقوم عليها الشيوعية :

المذهب الشيوعي يقوم على أصول ثلاثة رئيسية : (أولا) محو الملكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وجعل أرض الامة وكل ما عليها ملكا لجميع أفرادها على السواء .

(ثانيا) حذف رموس الأموال الفردية ، وجعل الحكومة قسيمة عليها .

(ثالثها) استئصال شأفة الدين من المجتمع ، باعتبار أنه الد أعداء الشيوعية ، لتسلطه العظيم على عقول العامة ، وبثه فيها مبادئ تناقض إيجاد الفردوس الأرضي في زعمهم .

ونحن نقاش هذا المذهب الحساب في كل هذه الأصول ، لنثبت للناس أنه لا يخالف العلم بحسب ، ولكنه يخالف الأوضاع الطبيعية أيضا ، ويحاول هدم جميع البواعث التي تعمل على حفظ الإنسانية وترقيتها ، سواء أكانت مادية أم أدبية .

أما أول هذه الأصول وهو محو الملكية الفردية ، فنناقض للوضع الطبيعي ، فإن أول ما كان عليه الناس أيام همجيتهم الأولى كان عدم الملكية ، لانحصار العناية في أمر واحد هو الحصول على الغذاء ، فكان الأفراد يهيمون على وجوههم في القفار ليصطادوا بعض الحيوانات ، أو يجوسون خلال الغابات لاستخراج بعض جذور الأشجار . فلما هددوا إلى استغلال الأرض ، كان كل منهم يزرع ما حول بيته ، والأرض واسعة والناس قليلون .

فلما ارتقى الاجتماع ، وازدادت معرفة الإنسان بالزراعة ، وتميزت الأسر ، وبدأت تتحدد الحقوق ، وجدت الملكية ؛ فالملكية ترق عن حالة الشيوعية التي سبقتها ، وكما وجدت الملكية وجد الزواج ، ووجدت الحقوق والواجبات ، ووجدت وشائج الاجتماع ومقوماته وحواظله ، فتركب بعد سذاجته الأولى ، ومن تركبه نشأت قوة تماسكه ، ومنانة ترابطه ، وشدة مناعته ، وابتنى على هذا التركب كل ما للأنسانية من حفظ في البقاء والاستمرار والترقى إلى أبعد الغايات . ومجرد النظر إلى حالة الجماعات يهجم بك على الفرق بين ما تنتجه حالة التركب الاجتماعي ، وما تنتجه حالة البساطة الفطرية . وإنك لتعجب أن ترى جماعات ساذجة التركب لا تزال باقية على ما كانت عليه منذ ألوف السنين ، على حين أن التي ساعدتها الأحوال المحيطة بها على التركب قد بلغت شأوا بعيدا من المدنية . فالملكية ترق عن الحالة الشيوعية ، فإن عادت أمة إليها زایلها جميع ما ابتنى عليها من وشائج الاجتماع وروابطه ومناطاته ، فأصبح رهن ثورة تهب فيه تحلل عناصره ، أو شدة تصادفه تفكك أوصاله . لذلك يضطر القائمون عليه أن يمسكوه في دائرة الاستقرار الاجتماعي بالقهر والإرهاب ، ويكون هو في أثناء ذلك سريع التقلب يتربص أن يجد فرصة للتفكك لينتهزها .

وقادة مثل هذه الجماعات الشيوعية إنما يتوخون بمحو الملكية والوراثة ، أن يمنعوا أن يتناول بعض الأفراد من الثروة العامة فوق ما يكفيهم فيدخروه ويحجبوا غيرهم عن الانتفاع به . وما دروا أنهم بهذه الوسيلة التي لن يكون لها أثر يذكر في تحسين الحالة الاقتصادية للمجموع ، يقتلون في نفوس الآحاد روح التنافس المشروع ، فيصبح الكافة سواسية في النفاة

والعدم ، ويحرم المجتمع من المشروبات العظيمة التي ينوق إليها ذوو الكفايات العالية طلبا للكسب .

ولا يمتنع علينا بأن وجود الحكومة قيّمة على الثروة العامة ، يكفل حصول تلك المشروعات بواسطة لجان تؤلف لذلك ، فالتنازُد هذا الاعتراض بقولنا : إن في قيام الحكومة مقام الأفراد والشركات خنقا لمحافظة الإقدام في نفوس الآحاد ، وإحالة للمجتمع إلى حالة القصر الذي ارتقى عنه أمثاله من الجماعات ، فيصبحون في حاجة ماسة إلى حكم الإرهاب ، وهذا الحكم يقتضي بث العيون والأرصاء ، فيضحي بعض الأمة رقباء مأجورين على البعض الآخر ، فإذا مر على الأمة في هذه الحالة ربح من الزمن أصبح تماسكها الاجتماعي صناعيا بعد أن كان طبيعيا ، وصارت عرضة للتفكك عقب أية هزيمة حربية أو كارثة اجتماعية .

وهم الشيوعية في تحسين حالة الفقراء بمصادرة أموال الأغنياء :

يستهدف الشيوعيون الفقراء ، بأنهم سيجعلونهم في رغد من العيش بحذف طبقة الأغنياء ، ومصادرة أموالهم ، وهو وهم كبير لا يطوف إلا برؤوس الذين لاحظ لهم من العلم الاقتصادي . كتب العلامة الاجتماعي الروسي (توفيكو) في كتاب له يعالج فيه مسألة الفقر :

« لقد انتشر في العالم رأي كاد يعم الهيمنة الاجتماعية ، وهو أن الفقر ما أنشأ أظفاره في الدهاء إلا بسبب سوء توزيع الثروة على الناس . ويقول أشياخ هذا المذهب : إنه متى أخذت الثروة من أيدي المحنكرين لها ، وقسمت على الناس تقسيما عادلا ، ذهب الفقر ، وحل الكفاف ، وأصبح النوع الإنساني في أرغد عيش أبد الآبدين .

« فما أجدرنا بأن يهني بعضنا بعضا بهذا الحل لو كان حقيقيا . . . »

« ولكن الحال والأسفا ليست على ما يصفون ، فإن الدهاء ليسوا بفقراء لأن بضعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكروا الثروة ، ولكنهم فقراء لأن مقدار المواد الغذائية التي تنتجها الأرض لا تكفيهم . ولما كانت هذه اللازمة الغذائية ناشئة من البيئة ، فيمكن أن يقال إن الفقر ضارب بجذوره في العالم ، لأن النوع البشري لم يُعد الأرض للإنتاج إعدادا يتفق ومصلحته الحقيقية .

« الفقر لا يُدفع بواسطة تقسيم الثروة بين الناس لسببين بسيطين :

« أولهما أن المال الذي يراد تقسيمه غير كاف لجميع حاجات الناس ، وقد تقرر ذلك بواسطة الإحصاءات . ذلك أنه لو صودرت الأرباح الفردية التي تزيد عن ١٠٠٠٠ فرنك وقسمت كلها على الناس الذين يقل دخلهم عن هذا القدر ، وجد أنه لا يخص كل فرد أكثر من ١٢ في المائة من دخله الحالي . وبما أن الناس لا يصلون إلى الرغد المرجو إلا إذا كان لكل منهم عشرة أضعاف

دخله الخالي ، أدركنا أن مسألة الفقر لا تندفع بتقسيم ثروة الأغنياء على الفقراء فإن العامل الذي يكسب الآن فرنكين يوميا ويشكو من الشكوى من الفاقة ، لن تنغير حاله إذا أعطى الاثنى عشر في المائة التي تخصه من مصادرة أموال الأغنياء ، إذ أن أجره لن يزيد أكثر من ربع فرنك يوميا ، فإذا عسى أن تحسن هذه العلاوة الضئيلة من حاله ؟

« أما السبب البسيط الثاني فهو ناشئ من طبيعة الثروة ذاتها . ذلك أنه إذا كان دخل المستر بيرمور مورجان الأمريكي ٨٣ مليوناً من الفرنكات في السنة ، فإن صودر هذا الدخل وقسم على إخوانه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقل من فرنك ، وماذا عسى أن يعمل هذا القدر الضئيل من تحسين حال الفقير الأمريكي ؟

« ولـكن المستر بيرمون مورجان لن يكتسب في السنة التالية ٨٣ مليوناً أخرى لأن الأمة صادرت كسبه الشخصي ، فيكتفى بكسب بضعة آلاف لحاجته الشخصية ، وما يصدق على المستر بيرمون يصدق على جميع الأغنياء ، فإن أفادت مصادرة أموالهم مرة واحدة فلن تتكرر هذه الإفادة ، فن يسد خلة الفقراء وحاجاتهم تجدد في كل حين ؟ » .

ثم عهد الأستاذ الروسي الى بيان العلاج العلمي فقال :

« ثبت لنا من الفصل السابق أن حالة النوع البشري سيئة جداً ، وأننا فقراء لأن منحصلات الأرض السنوية لا تنتج المقدار الكافي من الغذاء والملابس ، فهل هذا لأن الكرة الأرضية تعجز عن موافقتنا بما هو ضروري لنا ؟ إن كان الجواب إيجابياً وجب علينا أن نرضى بما قسم لنا ، وأن نعتبر الفقر كما نعتبر الموت أمراً لا محيص منه . ولكن من حسن حظ العاملين أن هذا الافتراض خطأ ، فإن في قدرة الأرض أن تعطينا ليس ما يوازي ١٠٠٠٠ فرنك سنوياً لكل منا بحسب ، ولكن في قدرتها أن تعطينا عشرة أضعافه ، فإن ينابيع الثروة فيها — كما قال الجغرافي المشهور (البزير ركلوز) — لا حد لها على الإطلاق » . انتهى

نقول : إذا كان هذا هو الرأي العلمي فلا يكون لحذف طبقة الأغنياء من نتيجة سوى قتل عواطف التنافس في الصدور ، وشل ملكات الإقدام في نفوس أهل النشاط والقوة الفياضة ، وحرمان مجموع الأمة من جهودهم العظيمة في إقامة المشروعات النافعة ، والحكم على الكافة بحالة من السُوءم تصل بالأمة الى مكان سحيق ، وتجعلها تتربص المخلص منه عند كل بادرة من فتنة فتأتي بشر مستطير .

أما وقد رأيت أن الشيوعية لا تستند الى أساس علمي ، من الناحية الاقتصادية ، وأنها تفكك أواخي النظام الاجتماعي ، وتحلل من ربطه ، وتذهب بحواظفه ، فإننا نرجو أن نثبت لك خطأها في مناوأة الدين واعتباره سبباً في إثارة العداوات بين الأمم ؟

محمد فريد وهجرى

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتْاوَى

الضمان في المعاملة الربوية :

هل يجوز شرعا أن يضمن الإنسان صديقا له عند أحد البنوك ؟

الجواب :

إذا كان هذا السلف بفائدة فهو معاملة ربا، وقد حرم الربا على آخذه، ومعطيه، وكتابه، وشاهده، كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف؛ فأولى أن يحرم على الضامن لأنه شريك في التعاقد.

الصلاة في مسجد بناءه مسيحي - بيع السمك في البحر :

(١) هل يجوز صلاة الجمعة في مسجد بناءه مسيحي ؟

(٢) هل يجوز بيع السمك في البحر وهو مجهول ؟

الجواب :

(١) مذهب الحنابلة والشافعية والحنفية لا يرى مانعا من صلاة الجمعة وغيرها من سائر الصلوات في المسجد الذي يبنيه مسيحي .

(٢) لا يجوز في المذاهب الأربعة بيع السمك في البحر وهو مجهول .

رضا الأب بتعميد ابنه :

مسلم تزوج مسيحية وقد سمح بتعميد ابنه منها، وتم بحضوره هذا التعميد، ثم هو يريه تربية مسيحية، هل هذا الأب يظل مع هذا العمل مسلما ؟

الجواب :

التعميد والتنصير منافيان للإسلام، فرضا الأب بذلك يعد خروجاً عن الإسلام، ويكون الأب بعمله هذا كافرا غير مسلم .

صدائق المتوفى عنها زوجها قبل الدخول بها، ومبرراتها:

توفى رجل صبيحة عقده على زوجة ولم يدخل بها ، فإذا تستحق من الصداق والميراث ؟

الجواب :

تستحق هذه الزوجة جميع صداقها الممجل والمؤجل ، ولها نصيبها المقدر شرعا في تركة الميت : الربع إن لم يكن للزوج ولد ، والثلث إن كان له ولد .

اليانصيب :

هل اليانصيب حلال شرعا ؟

الجواب :

ليست عملية اليانصيب مشروعة في الإسلام ، والربح منها سحت ، لأنه من الميسر المحرم شرعا .

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إسلامي

في الرضاع :

أختان من الرضاعة ، هل يصح الجمع بينهما في عصمة واحدة ؟

الجواب :

الجمع بين الأختين من الرضاع في عصمة واحدة محرم ، كالجمع بين الأختين من النسب .

في الميراث :

(١) توفيت امرأة وترك ابنًا وثلاث بنات هن أخوات هذا الابن منها فقط ، فما نصيب كل شخص ؟

(٢) وهل يحسب من التركة صداقها وثمنها وما ورثته من غيرها ؟

الجواب :

(١) تقسم التركة على الأشخاص الأربعة للذكر مثل حظ الأنثيين .

(٢) وتركة هذه المرأة هي كل ما تركته من صداقها ، وجميع ما ورثته من غيرها ، وما آلت إليها حال حياتها .

في الميراث :

توفي رجل عن : زوجة وثلاث بنات وأخ وأخت شقيقين ، فما نصيب كل ؟

الجواب :

جميع من ذكر في السؤال يرث ، أما نصيب كل منهم من التركة فكما يأتي :
لازوجة الثمن ، وللثلاث البنات الثلثان ، يقسم بينهما على سواء ، والباقي للأخ والأخت الشقيقين ، على أن للأخ ثلثي هذا الباقي ، والأخت ثلثه .

تعلم طريق الوقاية في المساجد :

هل يجوز إلقاء دروس طرق الوقاية من الغازات السامة في المساجد ؟

الجواب :

الوقاية من التهلكة مقصد سام من المقاصد التي أحلها الإسلام المنزلة الجديرة بها من الرعاية ، وهو أصل بذيت عليه أحكام كثيرة في الدين ، وتعليم الناس طرق الوقاية سبب من أسبابها ، فلا بأس به مع المحافظة على ألا يشوش على المصلين .

في الطلاق :

ملخص السؤال : طلاق ثلاثا معلق على شيء حصل . طلاق بلفظ (خالصة) معلق على شيء حصل . طلاق بالثلاث معلق على أن تكون خالصة إذا فعلت شيئا معيناً .

الجواب :

حيث إن مذهب المستفتي مذهب الامام مالك رضي الله عنه ، فنفيده أن مذهب يرى وقوع الطلاق ثلاثا بمجرد حصول المحلوف عليه أول مرة ، وعلى ذلك تعتبر زوجته من ذلك التاريخ أجنبية بالنسبة له ، ولا تحل له حتى تنكح زوجا غيره نكاحا صحيحا مستوفيا شروط الحل الأول .

أما المذهب الذي جرت عليه المحاكم الشرعية المصرية أخيرا ، فيتلخص في أن الجين المتعلقة إذا كان القصد بها الحث على فعل أو المنع منه ثم حصل المعلق عليه ، فإنه لا يلزم بها شيء ، وأيمان المستفتي كلها من هذا القبيل . وعلى ذلك فلا يلزمه شيء ، وزوجته لا تزال له لم تخرج عن عصمته .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف النحام

حياة حلال الإسلام

عبد الله بن العباس

تحدثنا في مقالاتنا السابقة عن حياة عبقرين من أساتيد مدرسة الاسلام الأولى الذين نخرجوا في مدارج الوحي ، فكانوا آية من آيات النبوة الخاتمة ، وشرعة من شرائع الهداية السامية ، ومعجزة من معجزات معلم الانسانية ورسولها الاعظم ، تحمل في مطاويها التحدي بها لفلاسفة العالم وحكامه وعلمائه وساسته ، وقادة الفكر في شرقه وغربه ، أن يأتوا بمثلها تكميلاً لروح الايمان بالعقيدة حتى تكون صبغة الجيل وأمل الحياة في زمنها عن طريق الفطرة الصادقة والعقل المستقيم ، ذاك هما : همر بن الخطاب فاروق الاسلام ، وعلى بن أبي طالب بطل الاسلام .

والآن نحاول أن نجعل صورة جديدة لشخصية من طرز جديد في أساتيد تلك المدرسة المحمدية الخالدة ، هذه الشخصية عبت من بحر العبقرية الاسلامية ، وعلى أساتذتها من رجيل الانصار الأبرار وسادة المهاجرين الأولين تخرجت ، ومن منبع النبوة وفيض الوحي استقت ، ولكنها أخذت من الحياة بجانب العقل والفكر ، فانصرفت الى العلم ترويه وتحفظه ، وتبثه وتنشره ، جائلة في كنوز الاسلام وشرائعه ، وآدابه وتعاليمه ، غائصة في بحاره للتقاط درره ، ذلكم هو عبد الله بن العباس ، حبر الامة ، وعلم الاسلام ، وعلم العلماء ، وترجمان القرآن ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يحدثنا التاريخ أن عبد الله بن العباس رحمه الله ولد وبنو هاشم محاصرون في شعب أبي طالب ، أيام المحنة العظمى للدعوة الاسلامية ، بما تضافر عليها من اجتماع أنصار الباطل وحلفاء الوثنية ، حتى كانوا إلّبا على رسول الله وقومه ، لا يبايعونهم ، ولا يناكحونهم ؛ وكانت هذه الحادثة أشد مآلتي الهاشميون من أذى قريش في سبيل ذيادهم عن النبي صلى الله عليه وسلم عصبية له ، وكانت أيضا أول بدء للنضال القوي الصارم في سبيل توطيد أركان الايمان بالعقيدة العتيدة ، ومناهضة موروثة الوثنية البالية عن طريق إيقاظ العقل وتحليصه من ربقة الأسر في أغلال التقليد البليد ، فانها كشفت عن روح التحكم الاستبدادي والعسف الآثم في مملك قريش مع إخوتها وأبناء عمومتها ، حتى نهض بعض الآباة من أضراب هشام بن عمرو وزمعة بن الأسود وزهير بن أبي أمية وأبي البختري بن هشام والمطعم بن عدي ، ينكرون

على قريش شتمتها ، ويأبون إلا أن يعيش الهاشميون مع الناس يأخذون ويعطون ، ويحيون حياتهم الأولى في غير حرج ولا إغناء ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون الى طبيعة الحياة حتى نكبوا بموت زعيمهم شيخ قريش ونبيلها أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، والقائم دونه بحميه ويزود عن دعوته ، فكانت وفاته من أشد ما آلم نفس النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، ونفوس الهاشميين عامة ، لمسكاة أبي طالب فيهم وفي عامة العرب .

كان طبيعياً بعد موت أبي طالب وانحياز أبي لهب الى جانب قريش ، أن يقوم العباس ابن عبد المطلب مقام أخيه أبي طالب في زعامة الهاشميين ، وكان مظهر الزعامة وقمئذ الوقوف في وجه قريش دفاعاً عن محمد بن عبد الله ودعوته ، فعضد العباس الدعوة المحمدية كما كان يعضدها أبو طالب . وكتب السيرة مجمعة على رواية حضوره بيعة العقبة العظمى مع النبي صلى الله عليه وسلم مستوثقا له من اليتريين ؛ وكان العباس أول متكلم فقال : « يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وقد أبي إلا الانحياز اليكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتوه اليه ، وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه اليكم فمن الآن فدعوه » . وتمت البيعة بمحضر من العباس ، وفتح بها باب الهجرة الذي نفذ منه المسلمون الى جهاد عدوهم وأشر دعوتهم ؛ وعبد الله بن العباس لما يشب عن الطوق ، ولكنه يرى ويسمع ، والحوادث تنوال في شدة وسرعة ، والآيات تترى ، والوحي يتتابع ، وشوكة الاسلام تقوى ، وكلته تعلو ، وساعده يشتد ، وأنصاره يكثر ، ومكة العصية تفتح ، وقريش الجائحة تؤمن ، وسادتها تطيع وتسلم ، والعباس يؤمن ويهاجر ، والحجاج العقلي يتعاضل ، والعرب قاصيها ودانيها تقبل في وفود رؤوسها مسلمة لله مبايعة لرسوله عليه السلام .

هذه هي العناصر الحيوية ، والمقومات الطبيعية ، والمبادئ الاجتماعية ، التي كانت حياة عبد الله بن العباس حبر الأمة وبحرها ، وقد كان لكل ناحية منها أثرها في حياته ، ولكن حرصه على العلم كان أربى وأسمى نواحيه ؛ يحدث عن نفسه فيقول فيما يرويه عنه مولاه عكرمة : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار : هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم اليوم كثير ، قال : وعجباً لك ! أترى الناس يفتقرون اليك ؟ ! فترك ذلك ، وأقبلت أسأل ، فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل فأتى بابي وهو قائل ، ولو شئت أن يؤذن لي لأذن ، لكن أبتغي بذلك طيب نفسه ، فأتوسد رداً على بابي يسنى على الريح من التراب ، فيخرج فيراني ، فيقول : يا ابن عم رسول الله ما جاء بك ؟ هلا أرسلت الى فاكيتك ؟ فأقول : لا ، أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث ، فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني وقد

اجتمع الناس حولي يسألوني ، فقال : هذا الفتى كان أعقل مني . وفي هذا الحديث من ضروب التربية التعليمية وأدب التهذيب ما يرفعه الى أن يكون دستوراً لحياة طالب العلم الذي رزق همة نبيلة ، ففيه تصوير لمقدار الحرص على التعلم ، وفيه تصوير لأدب تلقى العلم ، وفيه تصوير لما يحتاج اليه طالب العلم من الصبر على لأواء الحياة ، وفيه تصوير لقيمة الاعتداد بالنفس ومضاء العزيمة ، فان ابن عباس لم يكن حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره ، فيما يجزم به الواقدي ، ومع ذلك فقد أبت همته أن يستصغر نفسه ، فدأب يسأل ويتعلم حتى بلغ هذا المبلغ الذي لقب من أجله بالبحر ، فيما يقوله مجاهد ، ورويه البخاري عن جابر بن زيد « سألت البحر عن لحوم البحر — وكان ابن عباس يسمى البحر » .

وقد حقق الله بما آتاه من العلم والحكمة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له ، فقد روى عنه أنه قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بيدي حتى جعلني حذاءه ، فلما أقبل على صلاته حبست ، فلما انصرف قال : ما شأنك ؟ فقلت : يا رسول الله أو ينبغي لأحد أن يصلي حذاءك وأنت رسول الله ؟ فدعاني أن يزيدني الله فهما وعلماً . وروى أنه بات عند خالته ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم الى الخلاء فسكب له وضوءاً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من وضع هذا ؟ فقالت السيدة ميمونة : ابن عباس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » . وكان عبد الله بن عمر يقول له : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاك ف مسح رأسك وتقل في فيك وقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

وقد عرف له أجراء الصحابة وعلماؤهم هذا الفضل ، فكان عمر بن الخطاب يحبه ويقدمه على الأكبر من المهاجرين ، فقالوا له : ألا تدعوننا كما تدعو ابن عباس ؟ فقال عمر : ذاكم فتى السكحول ، له لسان سؤول ، وقلب عقول . ويقول عبد الله بن عتبة : كان عمر يأخذ بقول ابن عباس في العضل ، وعمر عمراً !! ويخبرنا ابن عباس عن بعض شأن عمر معه فيقول : قدم على عمر رجل فسأله عن الناس ، فقال : قرأ منهم القرآن كذا وكذا ، فقال ابن عباس : ما أحب أن يسأل عن آي القرآن ، قال : فزيرني عمر ، فانطلقت الى منزلي ، فقلت : ما أراني إلا قد سقطت من نفسه ، فبينما أنا كذلك إذ جاءني رجل فقال : أجب ، فأخذ بيدي ثم خلاي ، فقال : ما كرهت مما قال الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فاستغفر الله ! قال : لتجدثنى ، قلت : إنهم متى تنازعوا اختلفوا ، ومتى اختلفوا ضلوا . قال : لله أبوك لقد كنت أكرمها الناس !

وكان على كرم الله وجهه يقول فيه : إنه لغواص . وينبئنا ابن عبد ربه في كتاب العقد أن ابن عباس قال لعلى يوم التحكيم : اجعلني أحد الحكمين ، فوالله لأقتلن لك جبلاً لا ينقطع وسطه

ولا ينتشر طرافه ! فقال له على : لست من كيدك ولا من كيد معاوية في شيء ، لا أعطيه إلا السيف حتى يغلبه الحق ، قال : وهو لا يعطيك إلا السيف حتى يغلبك الباطل ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك تطاع اليوم وتمصى غدا ، وإنه يطاع ولا يعصى ! فلما انتشر عن علي أصحابه قال : لله بلاد ابن عباس ! إنه لينظر الى الغيب من ستر رقيق . وسأل رجل عبد الله بن عمر عن آية ، فقال : انطلق الى ابن عباس فاسأله فانه أعلم من بقى بما أنزل الله تعالى على محمد . وفيه يقول عبد الله بن مسعود : أما إن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد ، ونعم ترجان القرآن ابن عباس ! ولما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة : مات حبر هذه الأمة ، ولعل الله أن يجعل من ابن عباس خلفا . وكان ابن عباس شديد الإجلال لزيد بن ثابت ، فقد روى الشعبي قال : ركب زيد ابن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

وقد جمع ابن عباس من صنوف العلم وفنونه ما لم يكن لأحد من معاصريه ، لا يستثنى غير أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، حتى إن ابن سعد في الطبقات يروى أنهم كانوا يعملون بينهما فيقولون : « إن عبد الله بن عباس كان أعلمهما بالقرآن ، وكان على أعلمهما بالمبهمات » . وما نطن هذا إلا لأن عليا شغلته السياسة عن الكلام في تفسير القرآن ، وابن عباس تفرغ له فأكثر ، ومهما يكن فإن ابن عباس تلميذ على أخذ عنه كثيرا . والشيعة يروون أن ابن عباس سئل : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط . ويروى عن عطاء بن أبي رباح أنه قال : ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس ، أكثر فقها ، وأعظم خشية ، إن أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم من واد واسع . وقال مسروق : كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجل الناس ، فإذا نطق قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس . وروى أنه قرأ سورة النور وجعل يفسرها ، فقال رجل : لو سمعت هذا الديلم لأسلمت ! وكان سعيد بن جبير يقول : كنت أسمع الحديث من ابن عباس فلو يأذن لي لقبلت رأسه .

وكان ابن عباس واسع العلم بلغة العرب وآدابها ، روى أبو العباس في الكامل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى أن عكرمة مولى ابن عباس قال : رأيت ابن عباس وعنده نافع بن الأزرق - أحد رؤوس الخوارج - وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جل ثناؤه : « والليل وما وسق » فقال ابن عباس : وما جمع ، فقال نافع : أعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إن لنا قلائضا حقايقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وسأله عن قوله عز وجل : « قد جعل ربك تحتك سرياً » فقال ابن عباس : هو الجدول ، وأنشده :

سأما ترى الدالج منه أوزورا إذا تعب في السرى هريرا
وسأله عن قوله تعالى : « عَتَلْ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ » ما الزنيم ؟ قال ابن عباس : هو الدهى المزلق ، أما سمعت قول حسان بن ثابت :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع
وسأله عن قوله جل اسمه : « والنفت الساق بالساق » فقال ابن عباس : الشدة بالشدة ، وأنشده :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا
وسأله عن قوله عز وجل : « لهم أجر غير ممنون » فقال له ابن عباس : غير مقطوع ، فقال نافع : وهل تعرف ذلك العرب ؟ فقال : قد عرفه أخو بني يشكر حيث يقول :

وترى خلفهن من سرعة الرَّجْعِ مع منيننا كأنه أهباء
ولم يزل به يسأله حتى أمّله ، فجعل ابن عباس يظهر الضجر . وطلع عمر بن عبد الله ابن أبي ربيعة على ابن عباس وهو يومئذ غلام ، فسلم وجلس ، فقال له ابن عباس : ألا تنشدنا شيئاً من شعرك ، فأنشده قصيدته التي يقول في مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر غداة غد أم رائج فمهبجر
بحاجة نفس لم تقل في جوابها فتبلغ عذرا والمقالة تُعذر
حتى أكملها وهي ثمانون بيتاً ، فقال له ابن الأزرقي : يا ابن عباس أنضرب إليك أكلباد الابل أسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفيها فتسمعه ؟ ! فقال : نالله ما سمعت سفيها ! فقال ابن الأزرقي : أما أنشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشى فيخسر
فقال : ما هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخسر
قال نافع : أو تحفظ الذي قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه ، ولو شئت أن أردّها لرددتها ، قال : فإني أشاء ، فأنشده إياها ، فقال له نافع : ما رأيت أروى منك قط ، فقال ابن عباس : ما رأيت أروى من عمر ولا أعلم من عليّ .

وذكر المبرد في الكامل أن علياً وجّه ابن عباس إلى الخوارج ليناضروهم ، فقال لهم : ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين : قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً فلما حكم فى دين الله خرج من الإيمان

فليتب بعد إقراره بالكفر نَعْدُ له ، فقال ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه بالكفر ، قالوا : إنه قد حكم ، قال : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد فقال عز وجل : « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف في إمامة قد أشكت على المسلمين ؟ فقالوا : إنه قد حكم عليه فلم يرض ، فقال : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما ، فقالوا : إذ كان على حق لم يشكك فيه وحكم مضطرا فما باله حيث ظفر لم يسب ؟ فقال ابن عباس : قد سمعتم الجواب في التحكيم ، فأما قولكم في السب ، أفكنتم ساين أمكم عائشة ؟ فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا : أمسك عنا غرب لسانك يا ابن عباس فانه طلق ذلك ، غواص على موضع الحجة . وقد صدق الخوارج في وصفهم له ، فانه أوتي من البراعة في البيان وقوة الحجة ماسد عليهم مسالك الجدل مع قوتهم في الاحتجاج .

روى أن الخطيئة الشاعر نظر الى ابن عباس في مجاس عمر بن الخطاب وقد قرع بكلامه ، فقال : من هذا الذي نزل على القوم بسنه وعلام في قوله ؟ قالوا : هذا ابن عباس ، فأنشأ يقول :

إني وجدت بيان المرء ناقلة يهدي له ووجدت العي كالصمم
المرء يبلى وتبقى الكلم سائرة وقد يلام الفتى يوما ولم يعلم

وحدث شاعر الاسلام حسان بن ثابت قال : كانت لنا عند عثمان حاجة فطلبناها إليه بجماعة من الصحابة منهم ابن عباس ، وكانت حاجة صعبة شديدة ، فاعتل علينا ، فراجعوه الى أن عذروه ، وقاموا إلا ابن عباس ، فلم يزل يراجعهم بكلام جامع حتى سد عليه كل حاجة ، فلم يردا من أن يقضى حاجتنا ، فخرجنا من عنده وأنا آخذ بيد ابن عباس ، فررنا على أولئك الذين كانوا عذروا وضعفوا ، فقلت : كان عبد الله أولاكم بها ، قالوا : أجل ، فقلت أمدحه :

كنى وشفى ما في الصدور ولم يدع لذي إربة في القول جدا ولا هزلا
سموت الى العليا بغير شبهة فنلت ذراها لادنيا ولا وعلا

وكان ابن عباس من علماء العرب ، فقد روى أن رجلا شتمه فقال له ابن عباس : إنك لتشتعني وفي ثلاث : إني لاسمع بالحكم من حكام المسلمين يعدل فأحبه ولعل لا أقاضى إليه أبدا ؛ وإني لاسمع بالغيت يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به ومالي بها سائمة ولا راعية ؛ وإني لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم . والحديث عنه طويل الذيل فحسبنا هذه الصورة الإجمالية عن عبقريته لتحدث عن إخوان

له جروا في شوطه ؟

صالح البراهيم عرمون

الكلام والمتكلمون

تعريف علم الكلام ، وموضوعه ، وغايته ، وظروف نشأته

أثبتنا في فصول مضت أنه كان للمسلمين فلسفة قبل عصر الترجمة ، وأن هذه الفلسفة قد عالجت موضوعات هامة قبل أن يعرف العرب فلسفة الإغريق ، وذلك مثل وجود الله ووحدانيته ، وأزليته وأبديته ، وكماله وقدرته وعلمه ، واستحالة رؤيته بالحواس أو إمكان ذلك ، ومثل خلود الروح والحياة الأخرى والجزاء فيها ، وغير ذلك من المشاكل العويصة التي دوخت الفلاسفة منذ عهد المدرسة الأليائية إلى ذلك الحين ؛ وأثبتنا أيضا أن الجدل الذي احتدم حول هذه المشاكل قد سمي في تاريخ الفكر الاسلامي باسم « علم الكلام » . وقد رأى الأستاذان : « مانك » و « كارادى فو » هذا الرأي ، فقررا أن العرب كان لهم فلسفة ولدت ودرجت في حضن الاسلام تحت اسم « علم الكلام » كما سمي المشتغلون بها بالمتكلمين (١) .

فلننظر الآن ماهو حد علم الكلام ، وموضوعه ، والغاية المقصودة منه ، وما منشأ تسميته ، ومن هم وضاعه ، وما هي التطورات التي مر بها ؟

حدده صاحب « المواقف » بقوله : « والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية . والمراد بالعقائد : ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية : المنسوبة إلى دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما موضوعه عنده فهو : « المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا » (٢) .

وحده ابن خلدون بأنه : « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » (٣)

لا ريب أن من يتأمل هذين التعريفين يبين له أن بينهما فرقا عظيما ، إذ يرى الأيحيى يعرف علم الكلام بما كان يعرف به قبل تغلب المدرسة الأشعرية على خصوصها : أى حين كان يشمل آراء جميع الفرق ، من : صفاتية ، وقدرية ، وجبرية ، وغير ذلك . وهو لهذا يعلق على تعريفه إياه بقوله : « فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » . أما ابن خلدون فإنه خضع في تعريفه للأمر الذى أصدرته الأشعرية باقصاء جميع آراء خصوصها عن علم الكلام ،

(١) انظر صفحتي ٣٠٩ و ٣١٠ من كتاب « مزيج من الفلسفتين : اليهودية والعربية ، للاستاذ « مانك » ، و صفحة ١٥ من كتاب « ابن سينا » للبارون كارادى فو . (٢) انظر صفحة ٧ من « المواقف » طبعة القاهرة . (٣) انظر صفحة ٤٠٠ من مقدمة ابن خلدون ، طبعة القاهرة .

وباختصاصها أهل السنة وخدم باسم المتكلمين . وهو لهذا يقول : « والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » .

أما غايته : فهي الوصول عن طريق البرهان الى دفع الشبه التي انجبت الى العقيدة المتلقاة عن الوحي . وقد أجل الأيجي فوائده والغاية المثلى من الاشتغال به ، فقال : « وهي أمور : الأول : الترقى من حضيض التقليد الى ذروة الايقان . ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . الثاني : إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة . الثالث : حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين . الرابع : أن تنبئ عليه العلوم الشرعية ، فإنه أساسها ، وإليه يؤول أخذها واقتباسها . الخامس : صحة النية والاعتقاد ، إذ بهما يرجى قبول العمل . وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين » (١)

ويرى الأيجي أيضا أنه إنما سمي علم الكلام « لأنه بازاء المنطق للفلاسفة ، أولان أبوابه عنونت أولاً بالكلام في كذا ، أولان مسألة الكلام أشهر أجزائه ، أولانه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم » (٢)

غير أن هذا التحديد الذي وضعه الأيجي للتعريف والموضوع والغاية والتسمية ، إنما هو ناجم عن نظراته الى علم الكلام بعد عصر الترجمة ، لا في نشأته الأولى إبان خلافة عبد الملك ابن مروان ، كما سنبينه في موضعه . وآية ذلك أنه يقول : إما لأنه بازاء المنطق للفلاسفة ، أولان مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك ، فغلب عليه . إذ من المعلوم أن المنطق لم يعرف عند العرب إلا في العصر العباسي ، وكذلك التناحر والسفك لم يحدثا حول مسألة الكلام إلا بعد نشأة علم الكلام وتسميته كلاما بأكثر من ستين سنة . وإذا ، فذكره إياها يدل على أن نظرة المؤلف إلى علم الكلام متأخرة عن تاريخ نشأته بزمن بعيد ، وهذا يحيل أن تكون إحداها علة في التسمية .

وقد ذهب الأستاذ « اشمولدريس » الى « أن المتكلمين هم من اشتغلوا بكلام الإله » . وهذه عبارة متموجة يمكن أن تفهم منها مشايعة هذا المستشرق رأى الأيجي الذي ذكرناه آنفا ، وأن يفهم منها كذلك أن كلمة المتكلمين تطلق على من اشتغلوا بالقرآن شرحا وتأويلا واستنباطا . وقد فهم « البارون كارادى فو » هذا المعنى الأخير فنقده بقوله : « لو كان هذا الرأى صحيحا ، لكان المفسرون والفقهاء والنحويون والأدباء جميعا متكلمين . وهذا لم يقل به أحد من علماء المسلمين ، ولا من الباحثين المحدثين » (٣) .

(١ و ٢) انظر صفحتي ٨ و ٩ من « المواقف » طبعة القاهرة . (٣) انظر صفحة ١٢ من كتاب « الغزالي » تأليف « البارون كارادى فو » .

والحق بعد كل الذى تقدم هو أن كلمة « كلام » كان معناها فى أول الأمر : كل حوار حول مسألة من المسائل ، ثم تطورت فأصبح معناها النظر العقلى فى مشكلة من مشاكل الغيبيات . أما واضعه : فيقرر المستشرقون أنه غير معروف ، ويميلون الى أنه لم يوجد له واضع بعينه ، وإنما تكون من مجموعة المحاورات الأولى التى دارت حول ما ورد فى القرآن من مشاكل فلسفية نص عليها فى آيات متشابهات ، ثم من شبه نتجت بعد ذلك من الأخذ والرد اللذين اتسع مجالهما على توالى الزمن ، ولكنهم يرون أيضا أن كبار الفقهاء كالأبى حنيفة وأبى يوسف قد ساهموا فى تأسيس علم الكلام بقسط وافر ، أما الشافعى فقد هاجمه وحمل عليه فى شيء من العنف وإن كان لم يستطع أن يتخلص منه بحكم عقليته المنقفة ، ومهنته كفقهاء عظيم .

أما ظروف نشأته وتطوره : فهى تتلخص فى أنه لما وقعت الاضطرابات السياسية ، وعظمت الفتنة بين المسلمين ، جرف تيارها جميع نواحي الحياة ، فجرؤ الدخلاء والمنافقون على بث شبههم بين المسلمين مستترين خلف حجب الآيات المتشابهة ، محتمين بأمر القرآن الصريح فى إباحة النظر . فألجأت هذه الحركة مفكرى المسلمين الى المساهمة مع محاورهم فى مزاولة الجدل واستخدام التأويل .

ومنذ ذلك العهد أخذ المتأدبون يجتمعون حول مشاهير الأسانذة ، يتلقون عنهم المعرفة ، ويحاورونهم فى البراهين والشبه ، ومن هذه المحاورات تكون علم الكلام .

قال التفتازانى فى شرح العقائد النسفية ما نصه :

« وقد كان الأوائل من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين لصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبي عليه السلام وقرب العهد بزمانه ولقلة الوقائع والاختلافات وتمكنهم من المراجعة الى الثقات ، مستغنين عن تدوين العلمين وترتيبهما أبوابا وفصولا ، ونقرير مباحثهما فروعا وأصولا ، الى أن حدثت الفتن بين المسلمين ، وغلب البغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء ، والميل الى البدع والأهواء ، وكثرت الفتاوى والواقعات ، والرجوع الى العلماء فى المهمات ، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال ، والاجتهاد والاستنباط ، وتمهيد القواعد والأصول ، وترتيب الأبواب والفصول ، وتكثير المسائل بأدلتها ، وإيراد الشبه بأجوبتها ، وتعيين الأوضاع والاصطلاحات ، وتبيين المذاهب والاختلافات ، وسموا ما يفيد معرفة الأحكام العملية عن أدلتها التفصيلية بالفقه ، ومعرفة أحوال الأدلة إجمالا فى إفادتها الأحكام بأصول الفقه ، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام ... ثم لما نقلت الفلسفة الى العربية وخاض فيها الاسلاميون ، حاولوا الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه الشريعة ، فخطوا بالكلام كثيرا من الفلسفة ، ليتحققوا مقاصدها فيتمكنوا من إبطالها ، وهلم جرا ، الى أن درجوا فيه معظم الطبيعيات والالهيات ، وخاضوا فى الرياضيات حتى كاد لا يتميز عن الفلسفة لولا اشتماله على السمعيات ، وهذا هو كلام

المتأخرين (١) . وقال ابن خلدون بعد أن ذكر بياناً لأمهات المعتقدات الإسلامية التي ورد بها القرآن وآمن بها الصدر الأول كما جاءت دون بحث عما عسى أن يكون في ثنائها من شبه : « هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية . وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة » .

عن تلك الأدلة أخذها السلف ، وأرشد إليها العلماء ، وحققها الأئمة ، إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد ، أكثر مشارها من الآي المتشابهة ، فدعا ذلك إلى الخصاص وللتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل ، فحدث بذلك علم الكلام (٢) .

هذا هو مجمل الآراء في تعريف علم الكلام وموضوعه وغايته ، وعلة تسميته ، وظروف نشأته وتطوره . فلننظر الآن نشأة أهم مدارس المنكلمين ، وأبرز آرائها ، سالكين في ذلك نهج الترتيب الزمني لنشوء تلك المدارس .

القدرية أو أهل العدل :

كانت المشكلة الأولى التي دار حولها الجدل هي مشكلة : القضاء والقدر وما نتج منها من الآراء المختلفة بإزاء الجبر والاختيار ، وتحديد ما لدى الفرد من هذا الأخير ، وهل هو محدود منحصراً في دائرة معينة ، أو لا حده في جميع الأفعال التي من شأن الفرد أن يقوم بها . وأول من قال بالرأى الثاني هو معبد الجهني ، ثم عطاء بن يسار ، وأبو مروان الدمشقي .

جاء أولئك العلماء بحرية الفرد المطلقة ، وعززوا ما ذهبوا إليه بالأدلة العقلية ، فأعلنوا أنه لا معنى للتكليف ولا للثواب والعقاب إلا إذا كانت الحرية مكفولة ، وإلا لكان التكليف عبثاً أو تعجزاً ، وكان الثواب منحة من غير استحقاق ، والعقاب ظلماً على غير إثم . وقد أيدوا حججهم كذلك بطائفة من الآيات القرآنية تنص على أن الفرد مختار فيما يسلك في حياته من سبل ، مسئول عما يبرز من أفعال ، وذلك مثل قول القرآن : « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، « اعملوا ما شئتم » ، « بل سئلت لكم أنفسكم أمراً » ، « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « من يعمل سوءاً يجز به » ، « كل امرئ بما كسب رهين » ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، « إني كنت من الظالمين » ، « رب إني ظلمت نفسي » .

ولما كان خلفاء بني أمية يدينون بأن كل شيء قد أثبت في سجل القدر قبل وقوعه ، وأن فريق الناجين والهاالكين قد عينا في أم الكتاب التي لا محو فيها ولا إثبات ، وبالتالي : ليس في وسع الفرد إلا أن يخضع لهذا القدر المحتوم ، فقد سخطوا على القائلين بهذا الرأي

(١) انظر صفحة ٤٢ وما بعدها من شرح العقائد النسفية للفتاوى طبعه محمود شاكر بالقاهرة .

(٢) انظر صفحة ٤٠٤ من مقدمة ابن خلدون .

وتمقبوهم . فأمر عبد الملك بتعذيب معبد ثم بقتله في سنة ٨٠ هـ بحجة أن مذهبه أحدث اضطراباً في الأمة الإسلامية . وقد تبع هذا الرأي — رغم معارضة الخلفاء إياه — عدد من خاصة المفكرين ، منهم أبو مروان الدمشقي الذي أمر هشام بن عبد الملك بصلبه على باب دمشق . أما عطاء بن يسار ، فقد فر ، وتوفي وفاة طبيعية عند نهاية القرن الأول الهجري .

ولما كان الحديث الشريف صريحاً في أن القدرية هم خصماء الله في القدر ، وأنهم مجوس هذه الأمة ، فقد أطلق أنصار القضاء المحتوم على أنصار حرية الفرد اسم « القدرية » ليكونوا هم المقصودين بالحديث ، لأنهم خصموا الله في قدره ، وأسندوا إلى أنفسهم القدرة على الاستقلال بالأفعال . غير أن هؤلاء الخصوم لم يرتضوا لأنفسهم هذه التسمية ، وأعلنوا أن القائلين بالقدر : خيره وشره هم أولى منهم بهذه التسمية . وبالتالي : هم أولى بأن يكونوا مجوس هذه الأمة . أما هم فجديرون بأن يطلق عليهم اسم : « أصحاب العدل » لأنهم وحدثهم أنصاره الحقيقيون ، إذ أن العدل الحقيقي لا يكون إلا حيث تتحقق الحرية الكاملة في الأفعال ، وإلا فهل من العدالة أن تعاقب فرداً على ما أجبرته على فعله ؟

« يتبع »

الدكتور محمد غنم

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الشهرة ومبغضوها

الشهرة وبعد الصيت أحب الأشياء إلى قلوب الناس وقد يؤثرونها على الثروة ، وقد رأينا من أنفق ماله كله وأصبح معدماً في سبيلها ، ولـكن من الناس من تغلب عليهم هم أعلى وأرفع من هم أنفسهم ، فكانوا يهربون منها هربهم من البوائق الجائحة خشية أن يصرفهم العرض الزائل عن الجوهر الخالد . وهذا من غريب أمر الأفاذاذ ، وهو يدل على عراقة النفس البشرية في السمو ، وإنما تحجبها عنهم الشهوات الجسدية ، والآهواء الوقتية .

قال خالد بن صفوان : كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه . والأحنف هو ابن قيس سيد بني حنيفة ومن أخص أنصار علي رضي الله عنه ، الذي قيل فيه : إذا غضب الأحنف غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب .

وقال الحسن البصري : لقد صحبت أقواماً إن الرجل لتعرض له الكلمة من الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه فما يمنعه إلا مخافة الشهرة .

وقال ابن سيرين : لم يمنعي من مجالستكم إلا مخافة الشهرة ، فلم يزل بي البلاء حتى أخذ بلحيتي فأقت على المصطبة ، فقيل : هذا ابن سيرين .

وقال الفضيل بن عياض : كان أحدهم إذا جلس إليه أربعة أو أكثر ، قام مخافة الشهرة .

فِي عَالَمِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

نظرات في الأدب العربي

جاهليته وإسلاميته

كان يقعد بي عن الاندماج في الحياة الأدبية العامة ، والانضواء تحت لوائها ، والسير في ركابها ، والخضوع لناموسها العام ، بمواصلة الكتابة ، وموافاة الصحف والمجلات ، بالمساجلات والبحوث ، والآراء في الشعر والأدب ، وما إلى ذلك ؛ وبالحرص على الاتصال بالأدباء ، وشهود مجتمعاتهم ، وعمارة منتدياتهم - أقول : كان يقعد بي عن هذا المذهب ، أو بعبارة أدق ، عن معالجة ما لا ينبغي بي موضوعي عن معالجته منها ، أنني امتنعت التدريس من عهد مبكر ؛ وفيما جرى من نفسي مجرى النفس ، من آداب أساتذتي الجليلة - أحسن الله إليهم أحياء وأمواتا - أن الكرامة الشخصية رأس مال المدرس ، وسر الانتفاع بعلمه وبخلقه ؛ ولا ريب أن في معالجته لما يخرج عن واجبه الدراسي ، إشراكا ، يضعف مُنته في الداخل وفي الخارج ، ويعرضه للخطأ ، وشدوذ الرأي ، ثم للتخطئة والنقاش والجدل ، الذي لا سبيل إلى تحريره مما يتجافى به عن مناهج أدب الخطاب ؛ على حين أنه لم يعتد في درسه إلا نفوذ الكلمة وقوة السلطان ، وفلج الحجة ، بتوفره على عمله ، والانقطاع له ، والإخلاص في الحرص على عرضه في أقرب الصور إلى الكمال .

فلما تقدمت بنا السن ، واتصلت حجر دراستنا بشوارع الحياة العامة ، فسلكها بعض طلبتنا ، ووقف على أبوابها آخرون ، ومن دونهم طبقات آخر من الشادين ، كان يميزنا الاتصال غير المباشر بوساطة أبنائنا ، عن الاتصال المباشر بأنفسنا ؛ على أنه - مع ذلك - كان لنا فضل المرشد الناصح الأمين ، الذي يضع الهناء موضع النقب ، ويرى من صميم واجبه أن يوجه أبنائه إلى أفضل مناهج الحياة وغاياتها ، كما يوجههم - على قدر جهده - إلى أنفع مناهج التعليم وغاياتها . ولعل أغنى أيامي بالسعادة ، ذلك اليوم الذي أقرأ فيه لأحد أبنائي بحثا علميا أو أدبيا ، أو قصيدة شعرية ، في صحيفة راقية ، أو مجلة محترمة ، أو أطلع له مؤلفا مفيدا مطبوعا ، أو ديوانا من الشعر . وكم لي في التشجيع والحث على الإقدام والشجاعة وتطلب الإجابة بشئ وسائلها في هذا السبيل ، من مواقف كان لها شيء من القوة والاثار المحمود :

فكأنى وما أزين منها قعدى يزبن التحكما
كل عن حمله السلاح الى الحر ب ، فأوصى المطيق ألا يقبما

بيد أن الزمان قد تقدم تقدما يشبه الثورة الجارحة ، وطغت موجة النشاط الجسمى والعقلى طغيانا اجتراف أو كادكل واقف على الحياء ، بفضل ما نضجت به السرعة وقوة المواصلات ، من احتكاك الأفكار ، وانتشار المعرفة ، وتقدم العلم والفن ، حتى أصبح التخلف عن مجاراة الحياة الحاضرة خورا فى الطبيعة ، وشذوذا فى الفطرة ، ودليلا على عدم الصلاحية للحياة .

لذلك ، ولوجود من الآراء والمذاهب الأدبية يعالجها الصف الآخر من صنى الحياة العلمية فى هذا البلد ، أكتب فى هذا الموضوع ، شارحا وجهة النظر الأزهرى فى الأدب ، ومدافعا عنها ، ومبيننا ما يقبل عندنا — معشر الأزهرين — وما لا يقبل ، من روائع النقد الحديث ، وسأوالى البحث ، وأتابع الحديث ، إن شاء الله .

١ — الأدب الجاهلى :

جدة فى الأدب ، فى القرن الحاضر ، بحوث ومذاهب ، منها الإجمالى العام ، ومنها التفصيلى الخاص ؛ ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا : إن النقد التفصيلى الخاص فى هذا العصر ، كان فتحا جديدا ، جنى الأدب من غزواته طرائف ، فيها جدة ، وفيها جمال ، وفيها حياة ، وقد صادف التوفيق كثيرا منها ؛ وما لم يوفق منها الى تمام الغرض ، لم يخطئه التوفيق فى الطريق . على أنى لست بسبيل أن أتسكلم على النقد الخاص الآن ، فقد جعلت منزلته بعد الحديث عن النقد العام جملة .

أهم ما جد فى النقد العام للأدب الجاهلى فى القرن الحاضر رأيان ، أحدهما : أن الأدب الجاهلى أكثره مشكوك فيه ؛ والثانى : أن الأدب الجاهلى جنى على ما جاء بعده من أدب العصور الإسلامية الى اليوم . وكلا الرأيين جدير بالعناية ، جدير بالدرس ، جدير ببيان ما فيه من صواب ، وما خالطه مما يجافى الصواب ، إذ الرأيان كلاهما ، صدرا عن دراسة طويلة ، وعن بحث عميق ، واستندا الى دلائل وشواهد ، لا مناص من مناقشتها ، ومعرفة مبلغ ما تحمل من قوة وصحة ، قبل الحكم بسداد رأى أو فساد ، نزولا على طبيعة البحث ، وعلى حكم النظر .

ومنشأ الرأى الأول : أن العرب — كما هو معروف — ينقسمون الى قسمين : قحطانيين ، ومنازلهم اليمن ؛ وعدنانيين ، وهؤلاء : ربعيون وضريريون ، ومنازلهم شمال الجزيرة العربية . فأما شعر اليمنيين ، فهو موضوع منحول فى الاسلام لليمنيين لأغراض دينية أو سياسية أو عصبية أو أدبية أو اجتماعية ، لأن أشعار اليمن قد رويت بلغة قريش ، مع أن لليمن لغة

تخالف لغة الشمال ؛ قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا . وأثبت البحث الحديث اختلاف اللغتين إثباتاً لا يحتمل الشك . فنحن بين أمرين : إما أن نبطل هذا التقسيم الوطني والقبلي بين العدنانيين والقحطانيين ، وإما أن نرفض نسبة ما روى من شعر اليمن الى اليمنيين . والرأي الأخير أرجح ، لأسباب فصّلها صاحب هذا الرأي تفصيلاً لا يغني الاجمال عن الرجوع إليه ، منها أن الحال السياسية والاجتماعية ، كانت تقتضى غلبة الحميرية اليمنية على العدنانية ، لا العكس ؛ ومنها أن بين بعض شعراء اليمن وشعراء ربيعة ، رجماً واشجة ، ونسباً قريباً ، كأمريء القيس ومهلل ، ومع ذلك لم نجد في شعر أولها أقل تعرض لمقتضيات هذه القرابة . . . الى غير ذلك .

أما شعر ربيعة من العدنانيين ، فشكوك فيه ، لأسباب ، منها اختلاف اللغتين : الربيعة ، والقرشية ، اختلافاً أيسر من الاختلاف بين هذه وبين الحميرية ، وقد رويت أشعار الربيعين في بيان قرشي مبين ؛ ومنها ذلك الضعف الذي يلحس لمسا في أكثر ما روى للربيعين من الأشعار ؛ ومنها غير ذلك .

بقي شعر مضر ، وهو مقبول في الجملة قطعاً ، بيد أن الرواة لم يعفوه من التزديد والحل ، فقد نحلوا شعراء مضر كثيراً من الشعر الذي لم يقولوه ، ولم تنضح به قرائنهم ؛ وأقوى الأسباب التي تجعل الشعر المضرى مقبولا ، أن كثيراً من الشعراء المضريين أدركوا الاسلام ، واستمرت سلسلة مدرسة أوس بن حَجَر أستاذ شعراء مضر حتى كثير وجبل من شعراء الدولة الاموية ؛ وأن للشعر المضري خصائص فنية يدركها الناقد الاديب واضحة جليلة في كل ما أثر من الشعر الصحيح عن المضريين ؛ فما لم تظهر فيه مما نسب إليهم ، فهو مظلم النسبة ، منجول مدخول .

والناقد الاديب المبرأ من الغرض ، لا يرى في هذا المذهب شيئاً يزيد على ما روى عن قدامى النقاد من العرب ، إلا فرق ما بين الاجمال والتفصيل ، فكبار النقاد مجمعون على أن زعيم الكوفة في الرواية والحفظ هو حماد الراوية ، وأن زعيم البصرة في الرواية والحفظ خلف الأحمر ؛ وأهل الكوفة والبصرة مجمعون على تجريح الرجلين في دينهما وخلقهما وصرهاتهما ، ومجمعون على أنهما لم يكونا يحفظان الشعر ، ويحسنان روايته ليس غير ، وإنما كانا شاعرين مجيدين ، يصلان من التقليد والمهارة فيه الى حيث لا يستطيع أحد أن يميز بين ما يرويان وما ينتحلان . فأما حماد فيقول عنه المفضل الضبي : إنه قد أفسد الشعر إفساداً لا يصلح بعده أبداً ؛ فاما سئل عن سبب ذلك : ألحن أم خطأ ؟ قال : ليته كان كذلك ! فان أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل عنه ذلك في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها ، إلا عند عالم ناقد ؛ وأين ذلك ؟ .

ويروى ابن سلام : أن حمادا دخل على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، فقال له بلال : ما أطرفتني شيئاً ؛ فغدا عليه حماد ، فألشده قصيدة للحطيئة في مدح أبي موسى عدة أبياتها أربعة عشر بيتاً ، يقول في مطلعها :

هل تعرف الدار مذعامين أو عام دار لهند بجزع الخرج فالدام

قال بلال : ويحك ! بمدح الحطيئة أبا موسى ، ولا أعرف ذلك ، وأنا أروى شعر الحطيئة ؟ ! ولكن دعها تذهب في الناس .

وقد تركها حماد فذهبت في الناس ، وهي في ديوان الحطيئة . قال العلامة الراجزي رحمه الله : والبصير بالشعر ومذاهبه ، إذا قرأ شعر الحطيئة ، أخرج هذه القصيدة منه ، لأنها تقليد ومقاربة ، وإن كان المدائني قد صحح أنها للحطيئة في أبي موسى ، ونفى أن يكون حماد نحلها الحطيئة تقرباً إلى بلال ، فإن نفس الشاعر أصدق في نسبة كلامه من السنة الرواة .

وأما خلف الأحمر ، فيقول ابن سلام : إنه كان أفرس الناس بببيت شعر . ويقال إنه وضع لأهل الكوفة ما شاء الله أن يضع ، ثم نسك في آخر أيامه ، فأنبأ أهل الكوفة بما كان قد وضع لهم من الشعر ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة ! فبقيت أشعاره على حالها . ويقال إنه وضع لامية العرب على الشنفرى ، ولامية الحماسة التي مطلعها :

إن بالشعب إلى جنب سلعٍ لقتيلاً دمه ما يطلـ

على ابن أخت تأبط شرا في رثاء خاله . قالوا : ومن علام وضعها هذه الدقة التي لم تكن من خصائص العصر بعد ، في قوله منها :

حادث تما نابني مُصْمَلٌ جِلّ حتى دقّ فيه الأجل

وقال الأصمعي : سمعت خلفاً يقول : أنا وضعت على النابغة القصيدة التي يقول فيها :

خيل صيام ، وخيل غـير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تملك اللججا

وقد ذكر غير واحد من العلماء : أنه لما جاء الاسلام ، واندفع به العرب إلى الفتنوح ، اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حيناً من الزمن ، فلما راجعوا روايته بعد ذلك ، وقد أخذ منهم السيف والخيف ، وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب روايته ، صنعت القبائل الأشعار ، ونسبتها إلى غير أهلها ، تنسكث بها ، وتعتاض مما فقدته . وكان في العرب قوم آخرون قلّت وقائعهم وأشعارهم ، فأرادوا أن يلحقوا بذوى الكثرة من ذلك ، وإنما العزة للكثرة ، فقالوا على ألسن شعرائهم ما لم يقولوه ، وأخذ عنهم الرواة . وأول القبائل التي وضعت الشعر في الاسلام قريش ، وكانت أقل العرب شعراً وشعراء ؛ فانها لما تعاضت واستبنت وكذب بعضها على بعض أول العهد بالاسلام ، حين كان منها المسلمون ، ومنها

القاسطون ، ومنها دون ذلك ، وضعوا على حساب بن ثابت رضى الله عنه أشعارا كثيرة لا تليق به ولا تجوز عليه ، وما ترى العرب إلا أخذت إخذها في ذلك من بعد .

إذا علمنا هذا — وهو متعالم معروف — تحقق لدينا أن هذا الرأي ليس جديدا في جوهره ، ولا بدعة في الأدب لم يسبق اليها ، وإنما الجديد فيه ، هو هذا التفصيل والإيضاح والشرح ، وضرب المثل ، مما نوّع نواحي البحث فيه ، وفتح للباحت أبوابا ، لم تكن تخطر له قبل ذلك ببال . إن القدامى من النقاد ، أرسلوا شكهم في الأدب الجاهلي إرسالا ، وعمّموه تعميما ، فلم يفرقوا في هذا الشك بين شعر وشعر ، ولا بين عرب وعرب ؛ فأما صاحب هذا الرأي ، فقد تناول الموضوع ففصله تفصيلا ، وقسمه أقساما ، ثم أصدر حكمه على كل قسم ، معللا مبرهنا ، تارة بما ترتاح اليه نفس الأديب ، وأخرى بما لا يخلو من تعسف واضطراب ؛ وكلتا الحالتين مجدية على الأدب ، لا يخلو النظر فيها من جدّة ، ولا يقصّر عن نفع . ولعمري لو صدر هذا الرأي عن غير من صدر عنه ، ثم جرد من تلك الفضول التي تضر الأدب أبلغ مما تنفعه ، لقوبل في العالم العربي بغير ما قوبل به إبان ظهوره ، ولسكنت أفلام كثيرة حركها مبعضه بما كان الى العلم والمنطق ، أقرب منه الى النقد الأدبي والأدب . فالثورة على الرأي ، في حقيقة الأمر ، لم تكن لما أصاب الأدب من شك في نسبته ، إذ هو أدب سواء أ كان صحيح النسبة أم كان منحولا ، وإنما كانت ثورة على تلك الفضول التي استتبعها التوسع في استخدام حرية الرأي — من رجل معروف بالغلو في حرية الرأي — الى حد غير مقبول ولا مجد على أدب ، ولا على غير أدب .

فالأزهر يلتقي مع صاحب هذا الرأي في الناحية الأدبية في جملتها ، ويفيد بما تعلق به من بحوث وأطراف ، فيها لذة ، وفيها متعة ، وفيها فنون من الأدب خصيبة ؛ ليس من البر بالأدب مطاردتها وإغلاق الأبواب دونها ، وضرب الأسداد على الطلاب حتى لا يتناولوها فيفتنوا بما فيها من خير ، عما في طواياها من شر ؛ فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ، والخير لا يصد الوجوه عنه ، مصاحبة الشر له .

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ؟ وما على الزكي بقرب الرجس من ضرر .
وها نحن أولاء نبعث البعوث الى أوربا ، لتأخذ فلسفة العلوم والفنون عن علماء الغرب ، وفيهم اللادينى ، وفيهم الملمحد ، وفيهم اليهودى والنصرانى ، وغيرهم ، ولا تصرفنا عداوتهم لنا في الدين والمعتقد ، عن مصادقتهم في العلم والفن ووسائل ترقية الحياة .

بيد أننا نفترق عن صاحب هذا الرأي ، وعن السواد الغالب من شيعته وأشباهه ، لا في تلك الفضول التي مررنا بها مرأً آنفاً فحسب ، بل وفيما يحاولونه ويدأبون في السعى إليه في أناة وحسن تأتٍ ورقة أسلوب ، وهو فصل اللغة عن الدين ، والبحث فيها مجردة عن مسيحته ، وعن ملاساته ، وعدم التقييد في بحثها بالقيود التي تربطها به ، وتقصرها عليه ؛ وعندى أن هذا أخطر الأمرين ، وأسوأ الناحيتين ، إذ أن الدين من اللغة ، بمنزلة الروح من الجسد ، ففصل أحدهما عن الآخر ، قضاء عليهما جميعاً ؛ وليس هذا رأينا — معشر الأزهريين — وحدنا ؛ فالرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وهو صاحب مذهب في الأدب العربي معتقد ، ومكانته في البحث والنظر لا تمجد ، يقول في كتابه (تاريخ آداب العرب ص ١٣ ج ١) : وأنت خير بأن الرجال في تاريخ الآداب الأوربية ، هم قِطْعُهُ التي يتألف منها ، لأنهم متصرفون في اللغة كأنها إنما توضع لمعهدهم أوضاعاً جديدة . فكل رجل منهم في طريقته ومذهبه فن علم ، أو هو على الحقيقة قطعة متميزة في تركيب التاريخ العقلي . ولكن الرجال عندنا في قياسهم بأولئك يتزلون منزلة التشبيهات من المعاني الأصلية ، إلا ماندر ، ولا حكم للنادر . وذلك لأن في لغتنا معنى دينيا ، هو سرها وحقيقتها ، فلا تجد من رجل روى أو صنف أو أملى في فن من فنون الآداب ، أول عهدهم بذلك ، إلا خدمة للقرآن الكريم ؛ ثم استقلت الفنون بعد ذلك ، وبقي أثر هذا المعنى في فواتح الكتب . والقرآن نفسه حادثة أدبية ، من المعجزات الحقيقية التي لا شبهة فيها ، وإن لم يفهم سر ذلك « من لا يفهمونه » اه : هكذا وضع — رحمة الله عليه — من لا يفهمونه ، بين قوسين ، يريد بذلك أن ينبه من لا يفهم ، الى أنه يقصد الى قوم معينين ، تبين جنوحهم الى هذا الرأي ، وعماهم على تطبيقه ، والسعى في سبيله . وما كان الرأي الذي أسلفنا الحديث عنه في هذا البحث إلا طليعة ومقدمة لتطبيق هذا المذهب الذي لم يمُتته قيام الثورة في وجهه ، بل ها هوذا :

يبدو وتضمهره البلاد كأنه سيف على شرف يسلم ويغمد

فتراه اليوم في متجهاً النقد الحديث ، ونظم التعليم ، كما رأيته أمس في الأدب الجاهلي . وعلى الجملة ، فصميم الفرق بين مذهب الأزهر في اللغة والأدب ، وبين مذهب الجامعة فيهما ، أن الأزهر يخدم بدراستهما الكتاب والسنة ، وهما أصل الدين الذي يأخذ نفسه بحياطته والقيام عليه ، وأن الجامعة تدرسهما على أنها من خصائص الشرق ، وأدوات تاريخه ، ومقومات حياته .

وفيما يلي من فصول هذه النظرات ، مزيد إيضاح لمظاهر هذا الاختلاف ؛ فإلى اللقاء ؟

عبد الجواد رمضان

كلية اللغة العربية

نظام الوقف في الاسلام

وآثاره المترتبة عليه

عرضنا في بحوث سابقة لنظام الوقف وآثاره . والوقف لغة : الحبس والمنع ، وهو مصدر وقف ، تقول : وقفت الدابة إذا منعتها من السير فوقفت ، ووقفت الدار إذا حبستها ، ولا تقول : أوقفها فانها لغرديشة . وقد اشتهر إطلاق المصدر بمعنى اسم المفعول ، فيقال : هذا البيت وقف أى موقوف ، ومن ثم جمع على أوقف .

يبقى بعد ذلك أن أثمة الفقه الاسلامي رضوان الله عليهم اختلفوا في معنى الوقف شرعا ، فيذهب أبو حنيفة رضي الله عنه الى أن الوقف هو حبس العين على ملك الواقف مع التصديق بمنفعتها ، أو صرف منفعتها الى من أحب . فالنوع الأول كما لو وقف الواقف عينا من أول أمره على جهة بر لا تنقطع كالفقراء والمساجد والمدارس والمستشفيات والحصون والمقابر والسقايات والقناطر والملاجئ والنسكيات ونحو ذلك . والنوع الثاني كما لو وقف على جماعة من الأغنياء عينا ومن بعدم على جهة بر لا تنقطع . وفي هذه الحالة يعتبر الامام النوع الثاني وقفا قبل انقراض الموقوف عليهم ولا يعتبره صدقة . ومذهبه مبني على أنه رضي الله عنه لا يقول بلزوم الوقف ، فهو يرى كما يفهم من تفاصيل مذهبه أن العين الموقوفة تجري عليها أحكام الملكية بعد موت الواقف ، فنورث وتوهب ، وتعرض لها صفات الملكية كما لو لم تكن موقوفة .

ويذهب صاحبان : أبو يوسف ، ومحمد رضي الله عنهما ، الى أن معنى الوقف هو حبس العين عن أن تملك لأحد من العباد ، فيما يروى العلامة ابن عابدين ، والتصديق بمنفعتها ابتداء وانتهاء ، أو انتهاء فقط . فالحالة الأولى كما لو وقف من أول الامر على جهة بر لا تنقطع ، ويسمى الوقف حينئذ وقفا خيريا . والحالة الثانية كما لو وقف على من يحتمل الانقطاع واحدا كان أو أكثر مما لا يعتبر الصرف اليه صدقة ثم جعلها من بعدم لجهة بر لا تنقطع ، كما إذا وقف على نفسه وذريته ومن بعدم للمساكين ، ويسمى الوقف حينئذ وقفا أهليا ، فاذا آل الى جهة بر دائمة صار خيريا . وتلك التسمية الثانية تسمية عصرية ، وإن كانت في مدلولها متمشية مع كل عصر وجيل . وعلى مذهب صاحبين يكون الوقف لازما ، فلا يوجب ولا يورث ولا يوصى به لأنه لا يملك لأحد من العباد .

وبما لا مرأ فيه أن الوقف بنوعيه الخيري والاهلي عمل من أعمال البر والخير ، ووسيلة من وسائل القربى الى الله ، وهو فيما وراء ذلك نظام صالح يسيغه العقل وتدعو اليه نوااميس المجتمع ، وهو مع ذلك لا يعدو أن يكون نظاما لتوثيق ما بين الأغنياء والفقراء من صلات

تقوم على التعاون بينهما ، فالأغنياء يبذلون نواهم ، والفقراء يكفون عن الحقد عليهم والتبرم بما في أيديهم .

وهو فوق ذلك نظام أرشد إليه الكتاب والسنة ، وتواصت به أئمة مسيحية مع اختلاف في الأوضاع والأساليب والمقاصد ، فيندرج في كثير من الآيات التي حثت على فعل الخير والنزود به للأخرة ، مثل قوله تعالى : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » ، وقوله : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله : « وابسغوا إليه الوسيلة » ، وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ، وقوله : « وأتقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » .

وقد دلت على مشروعيته أيضاً الأحاديث الكثيرة والآثار المتضافرة ، واستمرار عمل الأمة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا على الأخذ بالوقف من غير تكبر . وهذا إجماع عملي على مشروعيته ، وهو حجة . قال زيد بن ثابت رضي الله عنه : لم نر خيراً للميت ولا للحى من هذه الجبوس الموقوفة . أما الميت فيجري أجرها عليه ، وأما الحى فتجبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها .

فنظام الوقف بنوعيه في الشريعة الإسلامية أوفى غرضها للمجتمع ، وأعم فائدة لمصلحة الجماعة والفرد . وما يعرض له من المساوىء في تصرف النظار مما يطرح كل يوم في ساحة القضاء لا يغض من قيمته ولا يؤثر في مشروعيته . فإذا أحسكت طريقه مراقبة النظار والأخذ على أيدي العابثين منهم ، أنتج نظام الوقف لنوع من بنى الإنسان أفضل وجوه المعونة ، وأكفل طرائق العطف والمنوبة ؟

عباس ط

الى حضرات القارئین

لم نستطع في هذا العدد أن ننشر كل ما لدينا من مقالات حضرات العلماء والكتاب التي تراكت لدينا في الشهرين اللذين لا تصدر فيهما المجلة ، وهما ذو القعدة وذو الحجة ، فنعتذر الى حضراتهم راجين أن نوفق الى نشرها تباعاً .

وكذلك نعتذر لحضرات المؤلفين الذين رغبوا إلينا في نقد مؤلفاتهم ، فقد ضاق هذا العدد عن نشر شيء من ذلك ، آملي أن نوفيها حقها في الأعداد المقبلة ، إن شاء الله ؟

نفس سورة الحجرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر
الدرس الثانى الذى ألقاه فضيلته فى رمضان سنة ١٣٥٨
بمسجد السيدة نفيسة بالقاهرة
وقد تفضل بالاستماع له حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى
فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوا
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

الطائفة من الناس : جماعة منهم ، ومن الشيء : قطعة منه ، وهى جمع طائف ، وقد يكنى
بالجمع عن الواحد ، فيراد بها الواحد .

والبغى : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتجرى فيه ، سواء تجاوزه أم لم يتجاوز . وهو
قسمان : محمود ، ومذموم . فالأول : تجاوز العدل إلى الإحسان ؛ والثانى : تجاوز الحق إلى الباطل ،
أو تجاوز الحق إلى الشبّه ، وقد قال عليه السلام : « الحق (١) بَيْنَ والباطل بَيْنَ ، وبين ذلك
مشتبهات ، ومن رتع حول الحمى أوشك أن يقع فيه » . وقولُ الله سبحانه : « إِنَّمَا السَّبِيلُ
على الذين يُظْلَمُونَ الناسَ وَيُظْلَمُونَ فى الأرضِ بغيرِ الحقِّ » دليل على أن هناك بغيا بالحق .
والفىء والفياءة : الرجوع إلى حالة محمودة . والعدل : هو التقسيط على سواء ، وهو
مساواة فى المكافأة ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ،
والشر بأقل منه . ويقال : قسط الرجل ، إذا جار فأخذ قسط غيره ؛ وأقسط ، إذا عدل
فأعطى قسط غيره .

(١) المشهور فى الرواية « الحلال بين والحرام بين الخ » . والرواية المذكورة سابقا الراغب فى مفرداته .

روى عن ابن عباس أن الآية في الرجلين ، أو النفر والنفر ، أو القبيلة والقبيلة من أهل الاسلام : يقتتلان ، فأمر الله تعالى أئمة المسلمين أن يقضوا بينهم بالحق الذي أنزله الله في كتابه : إما القصاص والقود ، وإما العقل والدية ؛ فإن بغت إحداها على الأخرى بعد ذلك ، كان المسلمون مع المظلوم على الظالم حتى يرضى بحكم الله . وعلى هذا فالصلح والقتال المطلوبان في الآية واجب الإمام ، لأنه قائم مقام المسلمين ، ونائب عنهم ، وخليفتهم ؛ فإذا وجد بلد لا يمتد إليه سلطان إمام المسلمين ، وجب على جماعة المسلمين ما هو واجب على الإمام . وجماعة المسلمين تصرفات نافذة معروفة في كتب المذاهب . وروى الزهري عن سالم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » .

وعلى هذا فإذا اقتتل اثنان أو جمعان من المسلمين ، فعلى الإمام الإصلاح بينهما ، بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، وبالنصح وإزالة الشبهة ؛ فإن تعدت إحداها ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وطلبت العلو بغير الحق ، ورضيت به الطائفة الأخرى ، قاتل المسلمون الطائفة الباغية حتى ترجع إلى حكم كتاب الله ؛ فإن رجعت بعد القتال ، أصلح بينها وبين الطائفة الأخرى بالعدل والإصاف ، ولا يكتفى بالمتاركة والمحاجة والكف عن القتال ، بل لابد من الإصلاح بالعدل ، لتزول الضغينة ، ويأمن الناس رجوعهما بعد ذلك إلى القتال . والله تعالى يحب المقسطين ، فيجازيهم أحسن الجزاء على عدلهم .

تقاتل الفئة الباغية ما قاتلت ، فإذا قبضت أيديها عن الحرب وكففت ، تركت ؛ وإذا ولت وركنت إلى الفرار لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطاب هاربها ، ولا يقسم فيئها ؛ وإن بغى الفئتان معا ، أصلح بينهما على الطريقة التي يراها المسلمون كافلة للموادة والمكافة ؛ فإن لم تتحاجزا وأقامتا على البغى ، وجبت مقاتلتهما معا ، لأن البغى فساد في الأرض ، وخروج على السنن الإلهية ، وتعدى على العدل الذي يحبه الله ويأمر به ؛ وعلى المسلمين أن يظهروا الأرض من البغى والفساد ، لتعمر بالعدل والإحسان .

هكذا يطلب الله من المسلمين أن يكونوا حراسا للعدل ، وقواما عليه . ومن حق من يضعه الله في هذا الموضع ، ويمنحه هذه الدرجة من الشرف ، أن يعد نفسه لهذا الشرف ، وأن يقدم كل شيء يملكه لتلبية لهذا الواجب الرفيع الشأن ، من نفس ومال .

وإن اقتتل فئتان بشبهة دخلت عليهما ، وكلتاها ترى نفسها محقة ، وجب إزالة الشبهة وإطلاعهما على مرشد الحق ؛ فإن ركبتا متن الغواية واللجاجة ، ولم تعملأ بما هديتا إليه ونصحنا به ، اعتبرتا في حكم الباغيتين .

وللفقهاء أحكام مفصلة فيما يتلفه العادل على الباغي ، وبالعكس . ولا بأس من ذكر بعضها هنا إجمالا :

أما المتلفات في غير القتال فمضمونة ، على القواعد الممهدة في قصاص النفوس وغرامة الأموال . وأما متلفات القتال فلا تضمن ؛ لا يضمن العادل لأنه مأمور بالقتال ، ولا يضمن الباغي لأن إزالة الضعيفة وحب الإسراع في وقف القتال يدعو إلى التسامح فيما أتلّف من نفس ومال . وعلى ذلك كانت الوقائع التي جرت في عصر الصحابة والتابعين ، فلم يطلب فيها بعضهم من بعض ضمان نفس أو مال . لكن الأموال المأخوذة في القتال ترد بعد انقضاء الحرب إلى أهلها من الجانبين . وهذا كله في البغاة الذين لهم شوكة من عدد وعدة ، ولهم تأويل باطل ؛ أما الذين لا شوكة لهم فهم في حكم قطاع الطريق ، عليهم ضمان ما أتلّفوه من نفس ومال .

والذين لهم شوكة وليس لهم تأويل ، اختلف الفقهاء فيهم ، فمنهم من ضمنهم ، وهو الظاهر الموافق لقوله سبحانه : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ، ومنهم من نفى الضمان عنهم .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

في هذه الآية تقرير لما أمر الله به من الإصلاح في الآية السابقة ، وبيان للعلة فيه . ذلك أن الإيمان عقد بين أهله ، من السبب القريب ، والنسب اللاصق ، ما هو إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها ، لم ينقص عنها ، ولم يتقاصر عن غايتها . وقد جرت العادة بين الناس على أنه إذا نشب قتال بين أخوين من أخوة الولاد لزم سائر الناس أن ينهضوا في إزالته ورفعها ، ويمشوا بالصلح بينهما إلى أن يرقعوا ما وهى من الوفاق ؛ فالأخوة في الدين أحق بذلك ، وأحق بأكثر منه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتناول عليه في البنیان فيستر عنه الريح إلا بإذنه » .

وطلب الله بعد عقد الأخوة بين المؤمنين أن يتقوه ؛ وبين أن تقواه سبيل التواصل والتراحم ، وأن هذا سبب وصول رحمة الله إليهم .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تُلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

السخرية : الاستهزاء والنظر الى المسخور منه بعين النقص ، واحتقاره قولاً أو فعلاً ، بحضرته .

والقوم : الرجال خاصة ، لأنهم القائمون على شئون النساء ؛ ومنه قول زهير : أقوم آل حصن أم نساء * وأما قوم فرعون وقوم نوح وعاد ، فمن باب تغليب الذكور على الإناث .
واللمز : الطعن والضرب باللسان ، والتنبيه على المعاييب في حضرته . ولا يدخل في مفهومه قصد الاحتقار ، كما يدخل في السخرية . وهذا هو الفارق بينهما .
والتنازع بالالقباب : التداعى بها . والاسم : معناه الذكر ، مأخوذ من قولهم : طار اسمه في الآفاق .

ينهى الله المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض ، فلا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس ، ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس . وقد جاء النهى في الآية منصبا على سخرية القوم من القوم ، والنساء من النساء ، بناء على ما هو الأعم الأغلب من وقوع السخرية في المجامع ، ومن أن القوم يسخرون من القوم ، والنساء من النساء . على أن هذا التركيب يدل بالعرف اللغوي على النهى عن السخرية على أى وجه من الوجوه .

ثم بين الله تعالى العلة في النهى ، وهى أن المسخور منه قد يكون خيرا من الساخر في الواقع ونفس الأمر وعند الله ، لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأمور ، ولا علم لهم بالخفيات ، وليس هناك شئ يقام له وزن عند الله إلا التقوى وخلوص الضمائر ، وهو وحده الذى يعلمها ، ولا علم للعباد بشئ منها ، فلا يجوز لأحد أن يجترأ على السخرية بأحد ، ولو كان ممن تزدريه العيون لرثائه حاله ، وقلة ماله ، وقبح صورته ، وعى لسانه وفهاسته ، فلعله أخلص ضميرا ، وأتقى قلبا ، وأظهر سريرة ؛ ولعله يحمل بين جنبه نفسا كريمة شريفة الخصال ، كاملة الخلق ، مهذبة بالعلم ؛ ولعله في هذا كله أحسن حالا من الساخر ؛ وفي السخرية ظلم بتحقيق من هو في نفسه عظيم لا يستحق التحقير .

ثم نهى الله المؤمنين عن اللمز والطعن ، وعن نداء بعضهم بعضا بما يكرهونه من الألقاب ؛ ونههم الى أنهم ، وهم كنفس واحدة ، وكجسد واحد ، لا يليق أن يطعن بعضهم بعضا ، لأن الطاعن في هذه الحالة يطعن نفسه ، ويطعن جسده ؛ وهذا هو السر في قوله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم » مع أن اللامز إنما يلمز غيره لا نفسه . وذهب صاحب الكشف الى أن المعنى : وخصوا أنفسكم أيها المؤمنون بالنهى عن اللمز ، ولا عليكم أن تلمزوا غيركم ممن ليس على دينكم أو ممن ليس على سيرتكم ، وهم المجاهرون بالفسق . وفي الحديث الشريف : « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس » . وقد روى أنه من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يسميه بأحب الأسماء اليه .

ولقد كانت الكنية من الأدب الحسن . وقال عمر : أشيعوا الكنى فانها منبهة . وقل من تجده من المشاهير في الجاهلية أو الاسلام ولا تجده لقبا حسنا أو كنية : كالعتيق لأبي بكر ، والفاروق لعمر ، وسيف الله خالد . ولم تزل الألقاب الحسنة والكنى تجرى في الأمم كلها في تحاطبهم وكتابتهم من غير نكير .

تقدم النهي عن التلقب بما هو مكروه ؛ ونذكر هنا أنه لا فرق بين أن يكون اللقب المكروه صفة له أو لأبيه أو لأمه أو غيرها ممن له به صلة . وروى عن الحسن : أدركنا السلف وهم يرون العبادة الكف عن أعراض الناس . وقد قال الله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » . والهمزة : الطعنان في الناس .

بعد هذا بين الله سبحانه أن السخرية والمز والنداعى بالألقاب موجبة للفسوق والخروج عن طاعة الله ، فلا يليق بالمؤمن الذي حل قلبه بالإيمان أن يطلق عليه كلمة فاسق ، وأن يشيع ذكره بين الناس على وصف أنه فاسق بعد أن عُرف بالإيمان .

فمعنى « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » : بئس الذكر أن يُذكر المؤمن بالفسوق بعد أن اتصف بالإيمان ، أى أنه لا ينبغي اجتماع هذين الوصفين : الإيمان والفسق ، كقولهم : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة . وهم يريدون استقباح الجمع بين الصبوة - أى ما يكون في حال الشباب من الميل الى الجهل - وكبر السن .

وينبغي أن نذكر أن اللقب القبيح قد يشيع فيذكر ولا يتأذى صاحبه منه ، وقد تدعو اليه الضرورة فيذكر لا على قصد التحقير ، كما يقول المحدثون : سليمان الأعمش ، وواصل الأحذب . وفي هذه الحالة لا ينهى عنه .

ثم ذكر الله سبحانه أن التوبة عن هذه الأمور واجبة لازمة كالتوبة عن سائر المعاصي ، وأن من لم يتب فهو ظالم لنفسه ، لأنه عرضها لسخط الله وعذابه .

وينبغي أن نذكر هنا كلمة عن التوبة : فهي ليست قول الشخص : أستغفر الله وأتوب إليه . كلا ! هذا القول لا يسمى توبة ، ولا هو الذي يطلبه الله سبحانه ويحبه : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ السَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » . التوبة تستدعى معرفة عظم ضرر الذنوب والإيمان عليها ؛ وتستدعى ألم القلب وحزن النفس من البقاء على الحالة الأولى حتى يشعر الإنسان بوصول الألم الى العظم ، وحزته فيه ، وبأن كبده تكاد تذوب ، وبأن الكرب يحيط به ولا مفرج له إلا الله سبحانه ؛ وتستدعى العزم على ترك الذنب والإقلاع عنه .

خقيقة التوبة : علم ، وندم ، وقصد . وإذا فقد أحدها فقدت . وغير خاف أن معرفة كون المعاصي مهلكات جزء من الإيمان ؛ وعدم المبادرة الى التوبة مفوت لجزء من أجزاء

الإيمان ؛ ولو كان الإيمان كاملاً لما أقدم مؤمن على معصية . وهذا يفسر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » . ولا بد في التوبة المقبولة أن تكون قريبة من الذنب : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ، فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً . » وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفّار ، أولئك أعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١) . وقد يسترسل المذنب في ذنوبه حتى يصير طبعاً ، ويران على القلب فلا تحله الندامة على الذنب ، ولا القصد الى الخلوص منه ؛ فإذا قال صاحب هذا القلب : إني تبت إليك ، كان قوله كقول القصاب الذي يغسل الثياب : إني غسلت الثوب ، دون أن يغسله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، ابْجِبْ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) :

اجتنبه : كان على جانب منه ، ثم شاع في التباعد اللازم له .

والظن : اسم لما يحصل عن أماره قوية أو ضعيفة ؛ فإن قويت جدا أدت الى العلم ، وإن ضعفت جدا لم تتجاوز حد الوهم .

والإثم : الفعل المبطىء عن الثواب ، وجمعه آثام . وقوله : « أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ (٢) » معناه : حملته على فعل ما يؤثم . والآثم : الذي يحتمل الإثم .

والجس : مسّ العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم . وهو أخص من الحس ، فإن الحس تعرف ما يدركه الحس . ويرى بعضهم أنهما متقاربان ، وأن مشاعر الإنسان يقال لها الجواس ، كما يقال لها الحواس .

والغيبة : أن يذكر الإنسان غيره بسوء ، وبما فيه من عيب في غيبته ، من غير أن يخرج الى ذلك . وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكرهه ، فإن كان فيه فقد اغتبت به ، وإن لم يكن فيه فقد بهتته » .

من الظن ما يباح اتباعه : كالظن في أمور المعاش وما أشبه ذلك ؛ ومنه ما يجب اتباعه : كالظن في الأحكام الشرعية الثابتة بأدلة غير قطعية ؛ ومنه ما يحرم اتباعه : كالظن في الإلهيات والنبوات ، والظن حيث يوجد دليل شرعى قطعى يخالفه . ومن الظن المحرم ظن السوء بالمؤمنين ؛ فقد حرم الله من المسلم دمه وعرضه ، وأن تظن به السوء . والمحرم هو عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ؛ أما حديث النفس ، والخواطر ، والشك ، فكل ذلك معفو عنه . والمنهى عنه ركون النفس وميل القلب . والأسرار لا يعلمها إلا علام الغيوب ؛ فليس لك أن تعتقد سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان ، أو ثبت ببرهان . أما ما لم تشاهده ولم تسمعه في أذنك ، بل وقع في قلبك ، فالشيطان يلقيه ، والشيطان فاسق كاذب . ولا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال من مشاهدة أو بيينة عادلة . وأماراة سوء الظن وعقد القلب ، تغير القلب عما كان . نعم قد يعذر الانسان في ظن السوء إذا أخبره العدل الثقة .

هذا الذى سبق بيانه خاص بالمعروف بالصلاح ، ومن أونس فيه الأمانة ، أو شوهده منه التستر ؛ أما المجاهر بالمعاصي ، ومن يتعاطى الريب ، فلا يحرم سوء الظن به وإن لم يره الظان على معصية ، لأنه مكّن من صفحته ، وأزال حرمة عرضه .

ومن الظن ما هو قهرى غير مستطاع الدفع ، فلا يتعلق به النهى لعدم القدرة عليه ، بل يتعلق بعدم العمل بموجبه . وقد يظن شخص أن أحدا يريد به سوءا ، فهذا الظان لا يضره أن يحترس ، لكن يضره أن يوقع أذى بالمظنون منه السوء . وعن سعيد بن المسيب قال : كتب الى بعض إخواني : « أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظن بكامة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها في الخير محملا ، ومن عرض نفسه لاتهم فلا يلومن إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده ، وعليك بإخوان الصدق ، فكن في اكتسابهم ، فانهم زينة في الرءاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك ، إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب » .

نهى الله سبحانه عن ظن السوء بالمؤمنين ، لأنه مدعاة الى التحقير والسخرية واللعز ، ومدعاة الى إيقاع الضرر بالمظنون به . وظن السوء خدش للعرض وهتك للحرمة ، وقد صان الله عرض المسلم كما صان دمه . وقد عرف مما سبق وجه قول الله : « اجتنبوا كثيرا » ، فان بعض الظن يباح اتباعه ، وبعضه يجب اتباعه .

نهى الله عن ظن السوء ، ونهى عن النجسس ، وتتبع عورات المسلمين ؛ ومن حق المسلم على المسلم ستر عوراته ؛ ومن ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة . وقال عليه السلام لمعاوية : « إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت تفسدهم » . وقال

أبو بكر : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى لما أخذته ، ولا دعوت اليه أحدا حتى يكون معي غيري . وفي الحديث الشريف : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله في قعر بيته » . وكل من أغلق باب داره ، وتستر بحيطانه ، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لتعرف المعصية . وقد دفعت كراهة المنكرات عمر بن الخطاب الى تتبع العورات بعض الأحيان ، فقد كان يمس بالمدينة فسمع صوت رجل في بيته يتغنى ، فتسوت عليه ، ووجد عنده امرأة ، وعنده خمر ، فقال عمر : يا عدو الله ! أظننت أن الله يسترك وأنت على معصية ؟ فقال : وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي ! إن كنت عصيتُ الله تعالى واحدة فقد عصيتُ أنت الله في ثلاث : قال : « ولا تجسوا » وقد تجسست ؛ وقال : « وأتوا البيوت من أبوابها » وقد تسورت ؛ وقال : « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وقد دخلت بغير إذني ! ! ! وكأنه قال له : وأنت أمير المؤمنين تبعاتك وعصيانك أشد ! فقال عمر : فهل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال الرجل : نعم ، والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت لا أعود الى مثلها أبدا ! فعفا عنه عمر ، وخرج وتركه .

نهى الله تعالى عن الظن ، وعن التجسس ؛ ونهى عن الغيبة أيضا ، وهي أن يذكر الانسان أخاه المسلم في غيبته بما يكرهه ، سواء كان الذكر صراحة ، أو كناية ، أو إشارة ، أو رمزا ؛ وسواء كان ما ذكره متعلقا بدينه أو دنياه ، وبخلقه أو خلقه ؛ وسواء أكان متصلا به أو بمن له به رابطة وصلة : من ولد ، وزوجة ، وأب ، وأم . وتحرم غيبة المعروف بالصلاح ، ومستور الحال ؛ ولا تحرم غيبة المجاهر بالفسق ، والداخل في مواطن الريب . وقد نقل القرطبي إجماع المسلمين على أن الغيبة من الكبائر . وبعد أن صورها الله أبشع تصوير في آخر الآية ، لا يصح أن تعد في الصغائر . ثم منها ما هو هين كعيب الشخص في لباسه أو دابته ، وما أشبه ذلك مما لا يتصل بالدين والخلق ؛ فاذا قيل : إن مثله من الصغائر كان مقبولا .

ويجوز لمن ظلم أن يشكو ظالمه ، ويذكر ما فعله معه مما يعد عيبا ، كما يجوز لمن يريد تغيير منكر أن يذكر ذلك المنكر للقادر على تغييره ؛ ويجوز تحذير المسلمين من شر ، بتجريح الشهود والرواة ، وإطلاعهم على أمور تدبر ضارة بالمجتمع الاسلامي ، كما يجوز ذكر ما في الولاة والقضاة من شر للقادر على عزلهم .

وقد تضمنت الآية لطائف : ففيها ذكرت أمور ثلاثة مرتب بعضها على بعض : نهى عن الظن في المسلم ، والقول فيه بغير علم ؛ ونهى عن البحث عن ذلك لتحقيقه ؛ ونهى عن إذاعة ذلك إذا تحقق . وختمت الآية بإطعام المؤمنين في رحمة الله بالتوبة ؛ وفتح الله الباب بقوله على سبيل المبالغة : « إن الله تواب رحيم » .

ومن أخبت أنواع الغيبة ، غيبة القراء والعلماء ، يظهرون أنهم لا يحبون الغيبة ولا يحبون سماعها ، ولكنهم يحتملون عليها بالباسها ثوب الداء والإشفاق لمن يريدون اغتيابه . مثلاً يذكر أمامهم شخص فيقولون : الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، ولا بطلب حطام الدنيا ! أو يقولون : والله ما أحسنه ! ما كان يقصر في عبادة ، لكنه ابتلى بما يبتلى به سائر الناس ، لطف الله به ! أو يقولون : والله لقد غمنا أمره وما ابتلى به ، مسكين ، أحسن الله حاله !

وقد يُظهر القارئ والعالم الغضب لله سبحانه ، والغيرة على دينه ، أو يتعجب من ظهور المنكرات ، وفشو الفسق ، فيقول مثلاً : انظر إنما نحن في آخر الزمان ، لقد شوهد فلان وهو يفعل كذا ، أو بلغنى أن فلانا فعل كذا .

وللغيبة أسباب ، أهمها : الغيظ ، وهياج الغضب ، فيذكر الإنسان عيوب غيره لشفاء النفس من غضبها ، ومجاملة الرفقاء ، وإرادة أن يرفع الإنسان نفسه بالنقص من غيره . ومنها الحسد ، وهو أهم الأسباب . ومنها اللعب ، والهزل ، والمفاخرة ، وإضاعة الوقت .

وقد صور الله المغتاب على أخش وجه وأشنعه ، وضرب له مثلاً من يأكل لحم أخيه ميتاً ؛ وذلك أن صاحب العرض يغار على عرضه ويألم له كما يألم الرجل من تمزيق لحمه ؛ فالمغتاب يمزق لحم من اغتابه . ولما كان ممزق اللحم غير حاضر وغير محس تمزيق عرضه وقت الغيبة ، كان كالميت إذا مزق لحمه ، وكان المغتاب آكل لحم أخيه ميتاً .

وقوله تعالى : « فكرهتموه » واقع موقع جواب شرط ، وكأنه قيل : لا يحب أحد أن يأكل لحم أخيه ميتاً ، فإن صح هذا منكم ، وهو لا بد صحيح ، فقد كرهتموه ، ومتى كرهتموه فاتقوا الله بترك ما يماثله وهو الغيبة .

وهو تواب : يفتح باب توبته لمن يقبل عليه . وهو رحيم : يرحم التائبين .

وتقول العرب للمغتاب : فلان يأكل لحوم الناس . ومنه قول الشاعر :

وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً عياناً

وقول الآخر :

فإن يأكلوا الحي وفرت لحومهم وإن يهدموا مجدى بنيت لهم مجداً

كلمة الاستاذ الكبير

في احتفال الأزهر بعيدي الهجرة والميلاد الملكي

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر مواقف في مناسبة الذكريات الإسلامية يترقبها المسلمون في العالم بأسره ، أخصها ذكرى الهجرة النبوية ، فقد اعتاد فضيلته أن يلقي فيها خطبة مغالطة يتناقضها الناس في الآفاق ، ويتدارسونها في نواديهم . وقد أفاض الله على فضيلته في هذه السنة كلمة جمعت بين ماضي المسلمين وحاضرهم ، وعرضت من أدوائهم ودوائهم ما شعوبهم في أشد الحاجة إليه لإصلاح شئونهم ، ورأب صدوعهم ، في سمو يأخذ بالآلباب ، وبيان يستهوي الأسماع . وقد اتفق أن كان قد أظلم عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، نغم فضيلته خطابته بذكر مناقب جلالته ، وما أفاض الله على مصر والعالم الإسلامي من فضائله وفواضله ، فازداد الاحتفال بذلك جلالاً على جلاله .

والى القراء نص خطبة الأستاذ الإمام حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم . ربنا آتينا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً .
أيها الإخوان :

أحييكم تحية الاسلام ، وأهنيكم بالعام الهجري الجديد ، الذي اجتمعنا اليه في الأزهر تحية له ، وتمجيداً للهجرة ، ولصاحبها سيدنا محمد بن عبد الله ، أشرف من سعى على الأرض ، وأطهر الخلق ضميراً ، وأشرفهم غاية وقصداً . وأبعث من هذا المكان الطاهر تهنئتي وتحياتي الى الأمم الإسلامية في أقطار الأرض قاصيها ودانيها .

هاجر محمد من وطنه ، والوطن لاصق بنفس صاحبه ، عزيز عليه أن يفارقه ؛ وإذا فارقه فالنفس نازعة اليه ، شديدة الشوق والحنين . وقد قيل قديماً : ليس الناس بشيء من أقسامهم أفنع منهم بأوطانهم . وقد عمر الله البلدان بحب الاوطان .

وليس أدل على أن الوطن عدل النفس ، وعدل الأبناء ، من قول الله سبحانه : « ألم تر إلى الملاء من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ؟ ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » ، وقول الله سبحانه : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا

من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم . فهؤلاء الأشراف من بني إسرائيل قد قالوا : كيف لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فجعلوا الإخراج من الديار داعياً قوياً ملجأ في الإقدام على سفك الدم ، والاستهانة بالأرواح ، ولم يكن سبيل الله عندهم كافياً وحده للقتال ، بل الذي أغراهم به وهاج نفوسهم اليه هو الإخراج من الديار والأبناء ؛ وقد سوى الله سبحانه بين الأمر بقتل النفس والأمر بالخروج من الديار في أنه لا يفعله إلا القليل .

هذه قيمة الوطن عند الأشراف ، وملك قيمته عند عامة الناس أيضاً .

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الذؤابة من قريش ، وكان أظهرهم نفساً ، وأكرمهم خلقاً ؛ وكان شديد الحرص على هداية قومه ، حتى خاطبه الله سبحانه بقوله : « فليعلمك باخع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » ؛ فلم يكن من الهين على نفسه الكريمة أن يفارق وطناً ولد فيه ، وطعم طعامه ، وشرب مائه ، وتنفس في جوده ، وأثرت عليه فيه شمس الهداية الربانية ، واتصلت روحه فيه بالوحي الإلهي ، ولقي فيه أخاه جبريل موفداً من قبل الله سبحانه لهداية قومه والناس ؛ لكن الدواعي قوية ملحة ؛ فقد حاربه قومه ، وحاولوا الخط من شأنه : كذبوه في دعوى النبوة ، وأغروا به الشعراء بهجونه ، وأغنتوه فطلبوا منه معجزة كونية كمعجزة موسى وعيسى « وقالوا إن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقي في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحانه رب هل كنت إلا بشراً رسولاً » .

ضاقت قريش ذرعاً به وضاق بها ذرعاً ، فلم يكن إلا شيء واحد : أن تظفر به أو يظفر بها ، فقد عاب معتقداتهم ، وسخر من آلهتهم ، وضلل آباءهم ، وسفه عقولهم ، وفتح للناس باب الحرية ، وساوى بين الشريف والوضيع ، ولم يقم للأنسب وزناً ، وجعل الكرامة للفقير ، وهون شأن المال ؛ وكل هذا يفرس البغضاء في نفوس أهل الثراء ، ويولد الحقد عند ذوي الأنساب ، وهو لا يحتمل مثله اليوم بعد أن مضى على الإسلام قرابة أربعة عشر قرناً ، فأولى ألا يحتمل عند أشراف قريش في الجاهلية .

لذلك قامت قريش تحاربه بكل ما تستطيع من الحول والقوة ، تناولته بالأذى ، وشردت أتباعه ، وأذاقتهم عذاب الهون ؛ ولا يخفى ما للحسد من القوة على بعث الشر وإيقاظ الفتنة ، وما للقرابة من الأثر في إيقاد نار الحسد والبغضاء . وقد كان الوليد بن المغيرة يقول : أنزل الوحي على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك عروة بن مسعود الثقفي سيد ثقيف ؟ « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أم يقسمون رحمة ربك ! نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا »

وقد نقل عن أبي جهل قوله : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ؛ فنتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه !

حاربوه بالدعاية ، وحاربوه بالحصار الاقتصادي كما تفعل الدول اليوم ، فقالوا : ساحر كذاب ، وقالوا : أساطير الأولين اكتبها فهي تملئ عليه ، وقالوا : معلم مجنون يفرق بين المرء وزوجه ، والولد ووالده ، والعشيرة والعشيرة ، والقبيلة والقبيلة ، وكتبوا كتابا تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، لا يصهرون اليهم ، ولا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم ، وعلقوه في جوف الكعبة توكيدا لما فيه .

بعد هذا كله ، لم يكن بد من الهجرة ، لأنه لم يكن هو وأتباعه من القوة بحيث يكون لهم الظفر على قريش ، فهاجر فرارا بنفسه وبدينه من هذه البيئة المليئة بالحقد ، وبظلمة الكفر ، الى بيئة يجد فيها راحة ومتنفسا ، وله فيها أمل وثيق في قبول دعوته وفي الأخذ بيده . وقد كان موقف قريش معه وموقفه معها من أكبر العوامل في نجاحه بعد الهجرة ، فان ثباته على الدعوة واحتماله هو وأتباعه كل ما وجه اليهم من أذى ، كان من شأنه أن تنواتر أخباره ، وأن تتراعى الى القبائل ، وكان من شأنه أن يفتح العين لا لبصار نور الحق ، وأن يفتح بابا للتفكير ، حتى عند أشد الناس جمودا ، وأقواهم صلابة في الباطل ، وهكذا يخدم الحق بما يوجه اليه من الأذى ، ومن هذا يجب أن تؤخذ العبرة .

ولا أظن أنه قد بقي في الهجرة معنى لم يتناوله الناس في خطبهم ومقالاتهم وأشعارهم ، فنحن إذا قلنا قائما نقول مكررا معادا .

لكننا مع هذا نحاول العودة الى العبرة ، ولا يجوز لنا أن نمر بها وبما يلابسها دون أن نعتبر ونتعظ ؛ وما قيمة ذكرى الهجرة إذا مرت ونحن عن العبر معرضون ، فندخل في قوله سبحانه : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون » ! وما ابتليت الأمم عامدة ، وما ابتلى المسلمون خاصة ، بأشد من البلاء بالاعراض عن الآيات والنذر ، والغفلة عن وجوه العبر .

أنظنون أن قوم نوح وعاداً وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة ، ركبوا من الإثم والبهتان أكثر مما ركبت الأمم في هذا الزمان ؟ وهل استمرءوا من الشهوات أكثر مما استمرأت الأمم اليوم ؟

وهل تظنون أن الله يهمل أمم اليوم فلا يعاقبهم كما عاقب تلك الأمم التي قص علينا في كتابه ما حل بها ؟ كلا ! إن الله قد بدأ ينزل على العالم بسبب طغيانه وتمرده مثل ما أنزله على الأمم الغابرة .

أغرق قوم نوح بالطوفان ، وأرسل على عاد ربحا صرصرأ عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، وأرسل حاصبا على آل لوط ، وأهلك آل نمرود بصيحة . كل هذه الآيات فاجأت تلك الأمم ، ولم يطل انتظارهم إياها من قبل .

وأين هذا من الرعب المستولى على العالم جميعه الآن ، حيث لا يعرف أحد عاقبة ما تصل إليه ويلات الحروب ، ولا يعرف هل يكون له مدى من العمر يستمتع فيه بأهله وزوجه وأولاده وأصحابه ، أو يختطف في لحظة من اللحظات ، في البر أو في البحر ، ومن صاعقة السماء أو من خسف الأرض ؟! وهذا الرعب تصاحبه صواعق القذائف ، من الجو ، ومن الأرض ، ومن البحر ، ويصاحبه الحرق والغرق . وقذائف الطائرات لا ترحم طفلا في مهده ، ولا مريضا في سريره ، ولا ناسكا في معبده ، ولا عالما في معبده ، ولا مقعدا ولا شيخا قانيا .

لا شبهة أيها الإخوان في أن هذا كله إنما هو جزاء ما اقترف من الشرور ، من إلحاد وكفر ، وفسوق وعصيان ، وافتنان في الشهوات ؛ وجزاء الأثرة والإعراض عن استغاثة الضعفاء والمظلومين ، من هول ما يلقونه من الأقوياء والظالمين ؛ وجزاء تسخير الأقوياء للأمم الضعيفة وعدّها أنعاما سائمة ترعى ثم تستمتع بخيراتها على ألوان من المناع لم يكن يعرفها الناس من قبل هذه المدنية ، المارقة ، الفاجرة ، التي أغرق أهلها في الشهوات ، وأغرقوا في الإشادة بها والدعوة إليها .

أيها الناس :

تدبروا قول الله سبحانه : « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين . وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون . حتى إذا استبأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ، ولا يُردُّ بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب »

الإيمان بأن محمدا صلى الله عليه وسلم يدعو هو ومن اتبعه الى الله على بصيرة ، قاض بإجابة تلك الدعوة والعمل بها ، وهي قاضية بالإفلاع عن الشرور والمعاصي ، والنزام حدود الله ، والانعاط بما قصه الله سبحانه من سير الأولين ، والتدبر في عاقبة ما حل بالأمم جزاء ما افترفته ؛ فقد آن للمؤمنين أن يتدبروا ، وأن للأمم أن تعتبر وتتعظ ، وأن لهم أن يؤمنوا بأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقد حل بأسه ، وسينجي الذين اتقوا ، وستكون لهم دار الآخرة ، ولدار الآخرة خير المدين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟ !

لا يأس من روح الله ؛ وقد آن للمسلمين أن يستعدوا لحمل نصيب وافر من مدنية فاضلة روحية تخلف هذه المدنية الفاسدة ، التي جعلت العالم أئسونا ، وسأقت الى ذلك الأنون أبناءها

طعاما ووقودا؛ وآن لنا أن نفكر في حياة عزيزة يصفو لنا فيها العيش ، فنستمتع بشمرات جهودنا ، ونضرب في العلم بسهم ، وننصر مدنية فاضلة ؛ وآن أن نجاهد في سبيل هذا لا نريد ظلما ولا نريد عدوانا « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

لكن هذا لا يكون إلا إذا غيرنا أحوالنا : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » . ونحن لم نذلّ عن قلة ؛ نحن كثير ، ولكننا كغناء السيل ، لكننا مع هذا نستطيع أن نضع أمام أعيننا قبلة نولى وجوهنا إليها ، وأن نضع أمامنا هدفا نسعى إليه ؛ وإذا كنا ضعافا فنحن نقوى بالاتحاد ، ونقوى بالتناصر ؛ ولسنا بأضعف من موسى وقومه أمام فرعون ومائه ؛ وقد قال الله تعالى : « وَزَيْدٌ أَنْ كُنْتُمْ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعْتُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَنَجَّيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَنَجَّيْتُمْ الْوَارِثِينَ . وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

أيها المسلمون :

فكروا وتدبروا ، وقابلوا الحوادث بالصبر ، واغتنموا الفرص فهي لا تسنح في كل وقت ، واحرصوا على الإيمان فهو لصيق العزة ، إنما العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكونوا تلك الأمة الصالحة المؤمنة التي وعد الله أن يمكن لها في الأرض ، ويبدلها من بعد خوفها أمنا : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأَ لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ » .

أيها السادة :

كان من الحظ والسعادة في مصر وفي الأزهر ، أن يقارن الاحتفال بالهجرة المباركة الاحتفال بعيد ميلاد ملك البلاد المفدى المحبوب ، حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، أيده الله وأدام توفيقه ! والأزهر يصطفى جلالة الملك بحب طاهر ، وجلالته يخص الأزهر برعاية تامة ، عرفها الأزهريون في أوقات عدة ، وفي مظاهر مختلفة ؛ وقد ورث جلالته هذه الرعاية عن المغفور له والده العظيم ، وكلاهما يعتقد اعتقادا خالصا أن الأزهر يؤدي رسالة دينية سامية للبلاد المصرية وللعالم الإسلامي ، وأن حياة الأمم حياة صالحة لا تكون إلا بفهم الدين وبيانه وإرشاد الناس إليه .

وكما أن مصر موضع آمال الأمم الإسلامية في الثقافة والعلم والمدنية ، وفيما يجيش بصدور تلك الأمم من آمال جسام للإسلام وأهله ، من مجد وعزة ، إلى صولة وقوة ودفاع عن الحق ، إلى مقاومة للطغيان ، حتى يعود التاريخ الإسلامي سيرته الأولى في أروع مظاهرها ، كذلك الفاروق - أطل الله حياته في السعادة والعز - هو قبلة الجميع ، ومعقد رجائهم ، وله من الفطرة

السليمة ، والسريرة الطاهرة ، والنظر الناقب ، والإحاطة التامة بأحوال الأمم الإسلامية ، والحرص على أن يراها عزيزة متحدة متضامنة في الغاية والقصد ، عزيزة بالعلم والدين ، لها من المكانة الرفيعة ما يجعلها في الصف الأول من صفوف الأمم ، قائمة بقسط عظيم في سلام العالم ، وتضميد جراحات الإنسانية ؛ له من ذلك كله ما يجعله أهلاً لأن تتجه إليه الأبصار .

وكما نحتفل بالهجرة لما لها من الآثار البالغة في قوة الإسلام وعزه ، نحتفل بعيد الفاروق ، لخلاله الكريمة الجديرة بالاعجاب ، ولما تؤمله فيه من عز للإسلام عظيم يكون لجلالته فيه أكبر الأثر وأحسن التوجيه .

ونسأل الله القادر على كل شيء ، للأمة المصرية رعاية من الله وعونا ، وهدايا وتوفيقاً ، وللأمم الإسلامية جميعها صفاء وأمناً وسلاماً ، وأن يعيد للعالم جميعه عهد سلام ورجوع الى الله سبحانه ، وأن يؤبد الفاروق بروح من عنده ، ويدبم له التوفيق ، ويعزه بالدين !



مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامية

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة

انتهى أمر قريش الى التآمر على حياة النبي صلى الله عليه وسلم على حالة لا تمكن عشيرته من الثأر له ، فنكتفى بقبول الفدية عنه ، وذلك جريا على رأى أحدهم في أن يشترك في ضربه بالسيف شاب من كل بطن من بطون قريش وأنخأها ، فيتفرق دمه فيهم جميعا ، فلا تقع حرب بسببه . وقرروا البدء في العمل من فورهم .

فأنبا الله رسوله بما استقر عليه رأى المشركين ، وأمره باللاحاق بأصحابه في المدينة ، فجاء من ساعته الى أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له في الهجرة ، فطلب إليه أبو بكر أن يصحبه ، فقبل طلبه . وأتى الصديق براحلتيه اللتين أعدهما ، وبجراب فيه طعام يكفيهما أياما ، واستأجرا هاديا ماهرا اسمه عبد الله بن أرقط ، فدفعما إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال .

ثم ترك أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم ، مواعدا إياه التقابل في جنح الظلام خارج مكة ، وكانت تلك الليلة ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقره مؤتمرمهم ، فأمر النبي عليا أن يرقد في سريره ، موها أنه هو حتى يشغلهم عنه بعض الوقت ، وخرج هو متخفيا حتى لحق بصاحبه خارج مكة ، وأخذوا يسيران جادين حتى انتهيا الى غار مهجور يقال له غار ثور ، فدخلا فيه .

أما المشركون فكانوا قد حاصروا الدار ، واستعدوا لاقتحامها متى مضى هزيع من الليل ، وكانوا في أثناء ذلك ينظرون من خصاص الباب (أى فُرَجِه) فيرون رجلا على سرير النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم مسجى ، فيظنون أنه هو فيطمئنون على وجوده . فلما جاء الوقت اقتحموا السور ودخلوا البيت ، فنذبه النائم وإذا هو على بن أبي طالب ، فسأله : أين محمد ؟ فقال : لا أدري ، فأوجعوه ضربا ، ثم رأوا أن يتعقبوا رسول الله ، فخرجوا خلفه ومعهم قائف يعرف مواقع الأقدام ، فازالوا يسرون حتى انتهى القائف الى الغار وقال : ها هنا انقطعت آثار الأقدام . فلما نظروا الى الغار وما هو عليه من الظلام والوحشة ، وما أوى إليه من الهوام والحشرات ، كبر عليهم أن يصدقوا أن رجلا يجازف بنفسه فيدخل فيه ، وكان في أثناء تردهم على الغار يرى أبو بكر أرجلهم ، فأدركه من ذلك فزع عظيم بكى منه ، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم

وهذا روعه ، وبشره بأن الله منقذه ، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » . وقد صدقه الله وعده ، فصرف الكفار عن اقتحام ذلك الغار استبعادا منهم أن يكون قد أوى إليه .

فأقام رسول الله وصاحبه في الغار ثلاث ليال ليتحققا من انقطاع الطلب ، وكان يبيت معهما عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثقیف لقین (أى حاذق سريع الفهم) ، فكان يُدَلِّجُ من عندهما سحرا فيصبح بمكة كبائت فيها ، فيسمع الأخبار ثم يعود إليهما ليلا متسللا ، فيخبرهما بما وحا . وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرطاهما ويغدو بها عليهما .

ولما انقطع عنهما الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحتين ، وسارا متبعين الساحل لا يلوون على شيء ، وكان أهل المدينة قد أخبروا بسفره اليهم ، فكانوا ينتظرونه كل يوم ، حتى أقبل فاحتفوا به فرحين مغتبطين وساروا معه ، فعبدل بهم ذات اليمين حتى نزل بقباء حيث بنو عمرو بن عوف ، وكان ذلك في ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ .

فأقام صلى الله عليه وسلم بقباء ليالي أسس فيها مسجدا ، وصلى فيه بمن معه من أصحابه المسلمين واليثربيين ، وقد دُعي الأولون بالمهاجرين ، والآخرون بالأنصار .

ثم تحول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فاستقبله أهلها نساء ورجالا بما يستقبل به كبار الفاتحين ، وكان الناس يسرون خلفه مشاة وركبانا يتنازعون زمام ناقته كل منهم يريد أن ينزل عنده .

وأدركته صلاة الجمعة وهو في ديار بني سالم بن عوف ، فنزل وصلاها ؛ وهذه أول جمعة صلاها جماعة ، وخطب فيها ، صلى الله عليه وسلم .

ثم سار وكلما مر على ديار للأنصار دعوه للتزول عندهم ، ولكنهم فضل أن ينزل بدار خالد ابن زيد ، وهو الذي عُرف بعد بابي أيوب الأنصاري ، وكان من بني عدي بن النجار أخواله الذين تزوج منهم هاشم جدّه .

وفي المحل الذي أناخ فيه رسول الله ناقته ، بنى مسجده ، وجعل بجواره حجرات لسكنه ، وبعد أن تم السكن انتقل إليه بعد أن لبث في دار أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر .

وتنافس أهل يثرب في إيواء المهاجرين حتى حكموا بينهم القرعة .

ولما استقر برسول الله المقام بالمدينة ، أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله ، فقدمتا بفاطمة وأم كلثوم بنتيه ، وسودة زوجته .

نظرة علمية تحليلية فيما سبق :

إن صبر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة على هذا الاضطهاد البالغ أقصى حدود الوحشية ، إذا لم يكن فوق الطاقة البشرية ، فانه يشف عن عقيدة راسخة في رسالته . ولو كان هذا الصبر منه وهو في ميعة السن ، ورقيق الصبا ، لأمكن تعليله بأنه من فتوة الشبيبة ، ومجازاتها في سبيل الشهرة ، ولكنه كان في عشرة الحسين ثم آلت الى عشرة الستين حيث تهدأ ثوائر النفس ، وتسكن جيشات الأهواء ، وتهيب الطبيعة بصاحبها الى الهدوء والسكينة .

ولو كانت مجرد مشادات كلامية ، ومناظرات مذهبية ، لكان أمرها على التعليل ، فان من الناس من يأنسون الى مثل هذه الحياة الخافلة بالمجادلات ؛ ولكنها مشادات عدوانية امتدت معها أيدي المشركين على أصحابه وعليه بالأذى حتى اضطر عدد كبير منهم الى المهاجرة مرتين ، ضنا بأنفسهم على الهلاك ، وليس الاضطهاد الذي يحمل الأسر برمتها على الهجرة الى البلاد القاصية ، بالأمر الذي يستهان به . ناهيك بالخوف التي تحمل أصحاب النبي على تركه يدفع أذاهم وحده ، بل التي تحمل مثل عمر في شدته على النجاة بنفسه والمهاجرة الى يثرب ، وتدفع بأبي بكر في تفانيه في حب نبيه على أن يستأذنه في أن يهاجر كغيره ، وما أخره إلا منع رسول الله له ليهاجر في صحبته .

فالداعية الذي يرى أخلص أصحابه وأشجعهم يتفرون من حوله ، ويدعون وحده إزاء أعدائه ، ولا تتزعزع ثقته بفوزه ، لا يعقل أن يكون مفتريا في نبوته ، ولا متكلما لما هو بصدده ، ولكن الذي يعقل هو أنه كان يعتقد بأن أعداءه لن يصلوا اليه بسوء ، اعتمادا على ما وعده ربه به عند أول عهده بالنبوة في قوله تعالى : « يأياها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين » .

وهذه الثقة من النبي صلى الله عليه وسلم في وعد ربه له بالعصمة ، تتجلى على أتم وجه في بقاءه بمكة الى الليلة التي تأمر فيها المشركون على قتله ؛ وكان في وسعه أن ينجو بنفسه قبل ذلك بأيام بل بأسابيع ، حين لم يبق أمل في كسر شره خصومه ؛ وهل كان مثل عمر يرضن بنفسه عن هذا الموقف ، وأبو بكر يستأذن النبي ليلحق به ، إلا والخطر محقق ولا يمكن دفعه ؟

وأعظم ما تجلت ثقة النبي صلى الله عليه وسلم بربه كان في غار ثور ، وقد احتوشه من أرسلتهم قريش للحاق به ، وأبو بكر يرى أرجلهم تحوم حوله ، ويسمع أصواتهم وهم يتآمرون على اقتحامه ، فكان من أثر ذلك على الصديق أن بكى من هول ما رأى وما سمع ، فالتفت اليه رسول الله وهذا روعه قائلا له : لا تحزن إن الله معنا ؛ وقد جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم كما رآه قراؤنا في الآية المذكورة في هذا الفصل .

فهذا الثبات المحير للعقل في وسط هذه المخاوف الموجبة لليأس ، لا يمكن أن يعزى لفضيلة الشجاعة فحسب ، لأنها جاءت مصاحبة لثقة تامة بالخلاص والفلاح ، وهذا لا يكون بغير وحي . ومن يتأمل في انصراف المشركين عن الغار وقد انتهى اليه الأثر ، يأخذ العجب ولا يستطيع أن يعلل ذلك بعلة ينال عليها الصدر . فلقد كان القرشيون أحرص الناس على أن يقبضوا على رسول الله ويقتلوه تخلصاً مما عسى أن يجره عليهم من الحروب والمنازعات القبلية ، وقد دلهم قائمهم على أن آثار الأقدام انتهت عند ذلك الغار ، وكان للعرب ثقة مطلقة في قائمهم (١) ، فيكون عدم تعويلهم على قوله مع وجود الغار فاعراً فاه ، ومع عدم استحالة الولوج فيه ، من أعجب ما يروى عن قوم كالعرب شديدي الكلب على أعدائهم !

رضينا أن نظن أن يكونوا قد تهيبوا النزول الى الغار لنفتيشه ، وأن يكونوا قد تخيلوا أن من يزله تنوشه أفاعيه وترديه ، ولكننا لا نرضى ولا نقبل أن نتخيل أنهم يتركونه ويرجعون أدراجهم دون أن يحاصروه أياماً وليالي حتى يتحققوا من خلوه ، والا اضطررنا أن نتهمهم بالإهمال في أمر خطير في نظرهم الى أبعد حدود الخطورة .

ولسنا نكتفي بهذا ، ولكننا نقول : كان يجب عليهم أن يقيموا في كل الطرق التي يمكن أن يتسرب منها الى يثرب كبسكة من الفرسان ، تقطع الطرق على خصمهم كما هي عادة من يهجم القبط على خصم . فإذ لم يفعلوا مع تحليهم بأرفع صفات الحيلة الحربية ، فإن إغفالهم له قد فسر بأن الله قد صرفهم عنه ، ولو كان لدى دليل على هذا الصرف لقلت به ، ولكنني التزمت في هذه السيرة أن لا أنجاوز أصول الدستور العلمي ، فلا ألتجأ الى الظن في موطن يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية ، وحياة النبي صلى الله عليه وسلم حافلة بالآيات الدامغة ، فلا حاجة بها الى ما يمكن الخصوم من تجريحه . لذلك فأنا أفسره بأنه تغاب من قريش مما هم بصددده ، كما تغابوا عن هجرة كبار الصحابة الى يثرب ، كأنهم اكتفوا بأن يبعد عنهم النبي الى حيث لا يراه العرب في مواسم الحج فيفتتن بعضهم ببيانه وشدة عارضته .

بقي علينا أن ننظر في النظام الذي أقامه النبي صلى الله عليه وسلم لجماعته ، وفي الأصول التي وضعها للقيام بمهمته ، وفي المنازعات التي ائتمت على دعوته ، والحروب التي أثارها الوثنية لمعاكسته ، وفي الأسلوب الذي جرى عليه صلى الله عليه وسلم في بناء دولته . كل هذه المناحي ستؤدنا الى خوض دراسات إسلامية نرجو أن تكون موجبة لوضع السيرة المحمدية على نحو يناسب عقلية معاصرنا ودرجة ثقافتهم ، إن شاء الله ؟

محمد فريد وهري

(١) القائف : من يتبع آثار الأقدام لمعرفة أين انتهت . وهو يستعمل في تعقب الهاربين ، جمعه قافة . وقَيْفَ

أفعال العباد

طلب إلينا أن نكتب كلمة في أفعال العباد نبين فيها الحق مما عليه الفرق الإسلامية .
فنذكر ما حضرنا من كلام العلماء ، ومما أفيض علينا ، مما لعله أعظم الحلول وأفضل الآراء ،
فنقول :

إنه ليكني لنصرة مذهب أهل السنة ، وسقوط مذهب الجبرية ، أن الجبرية قد صادموا
البديهة ، وخالفوا المحسوس ، فإن كل إنسان يفرق تفرقة ضرورية بين حركاته الاختيارية
والاضطرارية ؛ وكل ما صادم للضرورة وناقض للبديهة فهو غير مسموع ولا مستحق للرد
عليه ؛ وقد كان من حقهم ألا يشتموا من شتمهم ، ولا يضربوا من ضربهم ، ولا يعاقبوا
من جنى عليهم . ولكن من عرف استعداد الإنسان ، وأنه مظهر المتضادات والمتناقضات ،
وجمع العجائب والغرائب ، لم يستغرب ذلك .

ولقد رأينا من متناقضات النوع الإنساني ما يضحك الشكلى ويبكى الحليم ، فترى المعتزلة
والجهمية قد خالوا في التوحيد زعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل ، بنى الصفات ، وستسمع شيئا
عنهم بعد ؛ والمشبهة تصدوا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام ؛ والرافضة خالوا في النبوة
والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول ، والقول بالمعصية في غير الأنبياء ؛ والخوارج فرطوا
حتى كفّروا بالذنوب ؛ والمرجئة أفرطوا حتى أغرّوا الناس بالمعاصي ولم يقيموا لها وزنا ،
إلى غير ذلك من الحماقات والجهالات .

وإن شئت فانظر إلى ما وقع فيه الخلاف حتى كان المختلفون فيه على طرفي تقيض : كالعلم ،
وهو من أظهر الأشياء لدى كل إنسان ، فقال بعضهم : إنه لا يحد لكونه ضروريا ؛ وقال
آخرون : لا يحد لكونه من النظريات التي يصعب تحديدها ؛ وكذلك اختلافهم في الوجود ،
وفي الضوء ، إلى آخر ما يلهيك عن أعظم المصائب وأكبر الألعاب . ولا غرو فقد قال الله في حق
الإنسان : « إنه كان ظلوما جهولا » ، وقال في بيان طيشه : « خلق الإنسان من عجل » « وكان
الإنسان عجولا » . وإن من ضعفه الذي خلق عليه جهله بضعفه ، « ولو عرف ضعفه لكانت
تلك المعرفة دواء ضعفه » . وقد يفسد استعداد الإنسان حتى يكون الدليل عنده مثيرا للشبهة
والشك ؛ والنور لا يزيد الخفاش إلا تخبطا وحيرة .

ولو تأمل المعتزلة قليلا لعلوا أن الموجودات تنقسم إلى ماله الوجود من ذاته ، وإلى ماله
الوجود من غيره ، وكل ماله الوجود من غيره فلا قوام له بنفسه ؛ بل إذا اعتبرت ذاته من

حيث هي كان عدما محضا . وقد عرف في أحكام الممكن أنه ليس له شيء من ذاته ، وأن الوجود والعدم بالنسبة اليه سواء ، فلا بد أن يكون وجوده وجميع أحواله مفاضة عليه من غيره ، وهو الواجب عز وجل .

أليس من أوضح الأدلة على أن العبد في قبضة الحق يصرفه كيف شاء أنه تعالى أظهر للناس كل شيء ، وبين لهم كل طريقة ، ولكن لا يمكنهم أن يسلكوا من طرق السعادة الدنيوية أو الآخروية إلا ما أَرَادَهُ اللهُ لهم : « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة » ، فبينهم كتاب الله ينطق بالهدى ، وسنة رسوله تهدي الى صراط مستقيم ؛ وكم سمعوا من نصائح الناصحين وإرشاد المرشدين ؛ وكل ذلك واضح المعنى ، طلى المبني ، سافر المحيا غير مبرقع ولا محجوب ، فهو على طرف الثمام للتناول ، ولكنهم يعمرون به فلا يرون ضوءه المتلالي ، ولا يسمعون نداه العالى ؛ وكأن في آذانهم وقرا ، وعلى أبصارهم غشاوة !

وكذلك مسألة السعادة الدنيوية . وانظرها إن شئت في الأغنياء الذين لا يعرفون كيف يسرون ، والأذكياء الذين قتلوا كل شيء بحما ، وتجلت لهم كل الطرق بأوضح معانيها ، وأدق خوافيها ، وجميع مبادئها ، وغاية مراميها ؛ فكأن لسان القدرة الإلهية يقول : أوجدت كل شيء من وسائل الخير والشر والضلال والهدى ، وجعلته واضحا بينا على جانبي الطريق الذي تمر فيه كل يوم ، تشاهدونه بأبصاركم ، وترون من يقع ومن ينجو ، ومن يرتفع ومن ينخفض ، ومع ذلك كله لا يمكنكم أن تقتطفوا ثمرة من تلك الثمار ، أو تنظّلوا بشيء من ظلال تلك الأشجار ، أو تتوسلوا الى سعادتكم بشيء من تلك الوسائل التي جعلتها غير محظورة ولا محجورة ، وكأنكم لا تبصرون أو لا تعقلون ! أفلا تعرفون بذلك أنكم مسيرون بقدرتنا نصر فكم كيف نشاء ، ولم يمنعنا من ذلك كله جعل الأعلام والصحاح ، والطرق بينات ، والدلائل ناطقات ، ووجوه الأمور سافرات ، ليكون ذلك أدل على قدرتنا ، وأظهر في بيان تصرفنا واختيارنا ، فنجعل الأشياء سافرة تمام السفور ، ونعطيك الأبصار تخرق الستور ، ومع ذلك نجعلكم لا ترون ذلك النور ، فلا تسلكون ولا تستطيعون ، لتعلموا أن الله بكل شيء محيط ، وأنه على كل شيء قدير ؛ فأين تذهبون أيها المحجوبون ؟ ! سنستدرجكم من حيث لا تعلمون ؛ وإنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ؛ وبيدنا ملكوت كل شيء وإلينا ترجعون .

ومع ذلك كله يتجرا المعتزلة على القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وإن لم يردها الله عز وجل ، فتنفذ مشيئته دون مشيئة الله ! « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا » !

على أننا نرى كل أحد يحس بالقضاء الفاهر ، حتى الملحدين والماديين ، وإن كان لهم عبارات

أخرى تغاير عبارات الموحدين ، فيقولون : لم تمكننا الظروف ، أو الظروف قضت بكذا ، ولم يساعدنا الحظ ، الى آخر عباراتهم الدالة على امتلاء نفوسهم بالقهر الإلهي والعجز البشري .
وأما تشبث المعزلة بالبحث عن أسرار الله في خليقته ، وحكمته فيما قضى وقدر ، فناشئ عن جهلهم بالله ، وجهلهم بأنفسهم ، فإن حل مسألة القدر على وجهها التفصيلي يستدعي أن تدرك كنه علاقة الخالق بالخلق . والفكر الانساني له حد محدود يقف عنده ولا يتأتى أن يجاوزه ، وكأن من خواصه أنه لا يصل الى كنه الأشياء وحقائقها ؛ ومتى أراد ذلك اعترته الشكوك والأوهام ، فارتد طرفه خاسئا وهو حسير ، فليس له بالعلم إلا درجة مخصوصة يقف عندها ولا يتعداها ، ولذلك كانت الفلسفة في كل زمان مشار الأوهام ، ومعمش الخيالات ، ومنبع الشبهات .

ولنتنزل قليلا فنقول : هل يمكن الطفل أن يعرف السر في كل ما فعله أبوه ؟ وهل يتأتى تفهيمه ذلك ؟ ولو صح هذا للزم أن يكون استعداد الطفل كاستعداد أبيه ، وفهمه كفهمة أو قريبا منه . ولديك الوجدانيات التي لم نعرفها ولا ما يشابهها ، لا يمكننا أن نفهمك إياها ، كطعام لم تذقه قط ، ولا ذقت ما يشبهه ؛ ولذلك لا يمكننا أن نفهم الصبي لذة الوقع ، ولا من خلق أكمه تلك الألوان المختلفة ؛ وهكذا الأشياء كلها . وأنت تعلم أن الحيوان البهيمة لا يبلغ بماله من الإلهام الى تعرف حكمة الحكماء ، وتصانيف الأذكياء ، ومعارف الفطناء ، ولا يتمكن من معرفة مقدار زيادتهم عليه ؛ فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله تعالى ، ولا يستطيعون أن يعرفوا مقدار زيادتها على ما يعرفون . وقد انكشف لموسى عليه السلام ، وهو هو ، صحة ما فعل الخضر بعد القطع ببطلانه . ومما يجب الالتفات اليه أن الطبع في هذه المسألة غالب بقوته على من لم يعارضه بتذكر كمال الربوبية ونقص العبودية ، ويتضرع الى الله في إمداده بهدائه .

وينبغي للانسان في هذا المقام أن يتذكر ما يعلمه من نفسه من شدة الجهل وقلة العلم ، وتردده في الأمور وحيرته في أشياء كثيرة ، ورجوعه عما كان عليه مرارا ، وندمه البالغ على كثير مما فرط منه ؛ وقد قلنا : إن الله تعالى وصفه في كتابه العزيز بأنه ظلوم جهول .

وقد كان ينبغي أن تعلم من التجربة المنكررة ومن قصة الخضر عليه السلام ، التفاوت العظيم بين الخلق في معرفة الدقائق وخفيات الحكم ومحكمات الآراء ومعرفة عواقب الأمور ، فكيف يكون التفاوت بين الخلق وخالقهم عز وجل !

ولنتنزل غاية التنزل فنقول : لو وهب الله عز وجل لبعض خلقه نصف علمه سبحانه لجاز أن يكون ذلك التأويل في النصف الآخر ، فأتى الانسان في توهمه نفي الحكمة إلا من جهله بقدر علمه وعلم الله تعالى ، مع أن علمه الجملى بحكمة ربه كاف شاف ، وأن علمه بكمال ربه

في جميع أسمائه الحسنى مع نقص العبد في كل شيء وكثرة جهالاته وظلمه ، وخبث كثير من طباعه وغلبيتها عليه ، يكفيه وازعاً عن اتباع سنة إيليس حيث نازع ربه في حسن سجوده لآدم . وهذه هي سنة السفهاء من الناس الذين قالوا : « ما ولائم عن قبلتهم التي كانوا عليها » . وقد قال سبحانه وتعالى لملائكته : « إني أعلم ما لا تعلمون » . قال على كرم الله وجهه لمن سأله عن مثل هذا : أعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه رسوخاً . وقد قال مالك لمن جادله : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا لجذاله ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ !

ولنقف هنا اليوم ، وموعداً العدد الآتي ، إن شاء الله ،
 يوسف الدجوي
 عضو جماعة كبار العلماء



فضيلة العمل والكسب

قال على رضي الله عنه : من مات تعباً من كسب الحلال ، مات والله عنه راض .
 وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني لأرى الرجل يعجبني فأقول : هل له حرفة ؟ فإن قالوا : لا ، سقط من عيني .
 وروى أن داود عليه السلام مر بأسكاف فقال له : يا هذا اعمل وكل فإن الله يحب من يعمل ويأكل ، ولا يحب من يأكل ولا يعمل .
 وقال أحد الحكماء : كسب الحلال ، والنفقة على العيال ، من أعمال الأبدال .
 وقيل لبعض العلماء : ما المروءة ؟ فقال : العفة والحرفة .
 وقال يزيد بن المهلب بن أبي صفرة : ما يسرني أني كفيت أمر الدنيا كله لثلاث أنعم العجز .
 وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطاً . وقال ابن شوذب : كان إدريس عليه السلام خياطاً .

السنة

طاعة ولاة الامور

عن جنادة بن أبي أمية ، قال : « دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ ، قُلْنَا : أَصْلَحَكَ اللَّهُ ! حَدَّثَ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ : دَعَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَايَعَنَا ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا ، وَآثَرَةٍ عَلَيْنَا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ؛ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا ، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ » . رواه البخاري في كتاب الفتن .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمران : (١) بيان معناه إجمالاً ؛ (٢) حكم طاعة ولي الأمر في الشريعة الإسلامية ، وبيان ما يترتب على مخالفته في السر والعلانية من الأضرار .

١ — أما معنى هذا الحديث : فهو أن المسلمين في صدر الإسلام كانوا أحرص الناس على تعلم كل ما عساه أن يصلح دينهم أو دنياهم ، وكانوا لا ينفكون عن البحث عن كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله ، ليكون لهم به أسوة حسنة . وهذا هو السر في نجاحهم وتفوقهم على الأمم القوية التي كانت في عهدهم .

جنادة بن أمية رضى الله عنه ، ذهب لعمادة عبادة بن الصامت وهو مريض ، فلم يترك الفرصة تمر دون أن يستفيد منه فائدة من الفوائد التي استفادها عبادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يحدثه ببعض ما سمعه منه عليه الصلاة والسلام ، وقال له : إن هذا الحديث ينفعك الله به ، لأن من ينفع الناس بعلمه يناله من ذلك النفع قسط كبير ؛ فإن الله سبحانه قد وعد العلماء الذين ينفعون الناس بعلمهم وعداً حسناً في الدنيا والآخرة .

وفي ذلك حث على نشر الفضائل الدنيوية وإذاعتها بين الناس ، لأن الذين يعلمون شيئاً من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله ويكتمونه ولا يذيعونه ، لا ينفعون به على الوجه الكامل الذي يرضاه الله ورسوله ، بل هم مسئولون عن ذلك ومؤاخذون عليه إذا تعمّدوا كتمانهم أو سئلوا عنه فلم يجيبوا . ولقد تأدب جنادة رضى الله عنه فلم يقل لعبادة

ذلك ، لأنه يعلم أن عبادة لا يضمن بنقل ما يعرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طيب خاطر ؛ وهذا ما وقع فعلاً ، فإن عبادة قد حدثه بحديث جامع لكل ما يترتب عليه نظام الحياة الدنيوية والأخروية ؛ فقال له : إننا قد بايعنا النبي صلوات الله عليه على أشياء ؛ ثم ذكر له أهم هذه الأشياء ، وأعظمها قدراً ، وهو أمران :

(أحدهما) : « السمع والطاعة » في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه ، في جميع الأحوال التي يستطيعون فيها العمل بذلك ؛ وهو صلى الله عليه وسلم قد أمرهم بكل الفضائل الخلقية التي يترتب عليها صلاح معاشهم ومعادهم ، ونهاهم عن كل الرذائل الخلقية التي تضرهم وتضر المجتمع الانساني .

(ثانيها) : « ألا ينازعوا ولاة الأمور » ولا يخرجوا عليهم في أمر من الأمور ، إلا إذا أمروهم بالمروق من دينهم ، فإنهم في هذه الحالة لا يستجيبون لهم ؛ وذلك لأن الخروج على ولاة الأمور وعدم تنفيذ أوامرهم مثار للفتن الضارة التي قد تذهب بكيان الأمة ، كما سنبينه بعد .

وقوله في الحديث : « في منشطنا ومكرهنا » ، معناه في حال نشاطنا وفي حال كرهنا . فالمنشط بفتح الشين : مصدر ميمي معناه النشاط ، يقال : نشط بكسر الشين نشاطاً فهو نشيط . والمكره بفتح الميم والراء : مصدر ميمي كذلك معناه السكره بضم الكاف وهو المشقة . وغرض عبادة أن يقول : بايعنا الرسول صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في حالة النشاط وحالة الكسل ، فلا يحل لمسلم أن يتبع العوامل المنبطة عن القيام بما أمره الله به ورسوله من كسل وغيره .

أما قوله بعد ذلك : « وعسرنا ويسرنا » ، فمعناه أننا بايعنا الرسول صلوات الله عليه على السمع والطاعة والقيام بما يأمرنا به في حالة اليسر وفي حالة العسر . وليس معنى هذا أن الرسول قد كلفهم بما هو خارج عن مقدورهم ؛ فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وإنما معناه أن يقوم كل فرد من الأفراد بما هو في طاقته ، فمن كان معسراً لا يستطيع أن يبذل مالا فعليه أن يعمل بجوراحه السليمة التي يستطيع أن يستخدمها في طاعة الله ورسوله ، وخدمة دينه ووطنه ، كما ورد في حديث آخر .

وقوله : « وأثرة علينا » بفتح الهمزة والراء والياء ، أو بضم الهمزة وسكون المثلثة ، أو بكسرها مع الإسكان ، معناه الاتفراد بالشئ والاختصاص به مع كونه مشتركاً . والمعنى أنه لا يستأثر على أصحابه بما لهم فيه استحقاق . فهو يقول : بايعنا الرسول على ألا نتحرف عن العمل الذي يكلفنا الله به ورسوله ومن بلى أمرنا من أجل أن يمنعنا حقنا في الغنائم أو المناصب أو نحو ذلك ويؤثر بها غيرنا علينا ؛ بل يجب علينا أن ننفذ الأوامر والنواهي بصرف النظر عن كل اعتبار .

وذلك هو الفناء في سبيل الإصلاح الاجتماعي والخلقى ، فإن العامل في سبيل الإصلاح ينبغي له أن ينفذ ما هو منوط به ، بصرف النظر عن كل ما يحيط به من عوائق ، فلا ينظر الى مصاحته الشخصية أيًا كان حالها ، ولا يبالى بالأمور المادية التي تحيط به ، بل يجب أن يكون كل همه منحصرا في أداء ما هو مكلف به من خدمة المجتمع الذى هو فرد من أفرادها . بجد وإخلاص ، بصرف النظر عما وراء ذلك من متاع الحياة الدنيا وزينتها . وذلك في الواقع أساس الإصلاح الاجتماعى ، فإن العامل الذى يريد أن يرضى الله عز وجل في قوله وعمله ، يجب عليه أن لا يتطلع الى ما وراء ذلك من مال أو جاه أو منصب ؛ ومن يفعل ذلك فقد أساء الى عمله المنوط به ، وأساء الى المجتمع الانسانى ، بل وأساء الى نفسه من حيث لا يدري ، لأنه بذلك يكون قد أدخل بأداء واجب من الواجبات المقدسة في سبيل منافع زائلة لا قيمة له في الواقع ، وكان مثلا سيئا لمن عساه أن يقلده في فعله فيتضاعف شره . ولعل كثيرا من الناس يغفلون عن هذا المعنى الجليل ، وهذا الأدب الخلقى العظيم ، فيقتصرون في أداء واجباتهم لأنهم يرون في ذلك تشفيا لأنفسهم من حيف لحق بهم ، ولكنهم في ذلك مخطئون كل الخطأ ، لأن الأعمال النافعة يجب أن تؤدي لذاتها ، وأن يقصد العاملون ابتغاء مرضاة ربهم بصرف النظر عما سواه .

أما قوله : « وألا تنازع الأمر أهله » ، فمعناه ظاهر ، وسيأتى بيانه بعد . وقوله : « إلا أن تروا كفرا بواحا » فمعناه « كفرا ظاهرا » . تقول : باح بالشئ ييوح به بواحا ، إذا أذاعه وأظهره . وبعضهم يقول : يجب أن يكون اللفظ بواحا بالهمز ، لا بواحا . وعلى كل حال فالغرض منه مفهوم كما ذكرنا .

٢ — أما حكم طاعة ولى الأمر في الشريعة الإسلامية فهي فرض مقدس لا يجوز لأحد من الناس أن يخرج عنه قيد شعرة ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . فطاعة ولاية الأمور مقرونة بطاعة الله ورسوله ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في وجوب طاعتهم ؛ منها قوله صلى الله عليه وسلم : « السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ؛ وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوز وعلى الرعية الصبر » . من حديث رواه ابن ماجه وغيره .

وهذا الحديث الذى معنا يدل دلالة صريحة على أن طاعة ولى الأمر فرض مقدس على المحكومين ، فإن عبادة يقول : إننا بإيعنا الرسول عليه الصلاة والسلام على السمع والطاعة في كل حال من أحوالنا ولو شق علينا فعله ؛ وبإيعنا على أن لا تنازع ولاية أمورنا فيما يأمرونا به ، بل ننفذه ولو لاقينا فيه عسرا ومشقة ، ماداموا لم يأمرونا بالخروج على ديننا .

وهذا المعنى يدور عليه نظام الأمة الإسلامية في كل أدوار حياتها ، لأن الدين الإسلامي قد حذر المسلمين عن إثارة الفتن التي يترتب عليها فساد نظامهم ، مهما لاقوا في سبيل ذلك من العنت والإرهاق والعسر والمشقة . فإن الصبر على مثل هذا يوطد دعائم الوحدة ، ويثبت أركانها ، ويجعلهم في مأمن من أعدائهم في الخارج ، لأن الفتن الداخلية من شأنها أن تذهب بقوتهم ، وتضعف شوكتهم ، وتجعلهم عرضة للمغيرين دائماً . على أن الصبر على ما قد يشعرون به من المكاره قد يكون فيه مصلحة آجلة لهم تخفي عليهم حقيقتها ، فليس من الصواب أن يخرجوا على سلطانهم لمجرد مشقة أو عسرة يجدونها منه .

هذا إذا كان في أمر السلطان ونهيه خفاء ؛ أما إذا أمرهم بما فيه مصلحة ظاهرة يقوم عليها شرفهم وحفظ كيانهم ، فإنه يفترض عليهم أن يطيعوه في تنفيذها طاعة عمياء ، مهما كلفهم ذلك من مشقة وخرج ، وبذل نفس أو مال . ذلك لأنهم في هذه الحالة لم يشعروا بنتائج الأمور ، ولم يقدرُوا الفضيلة حق قدرها . مثلاً : إذا أمرهم السلطان بإعداد العدة للقاء عدو أو اتقاء شر ، فإنهم في هذه الحالة يفترض عليهم أن يتلقوا هذا الأمر بالسمع والطاعة ، وأن يتعاونوا جميعاً معه على تنفيذه ، وأن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً من هذا الأمر بأية حالة من الحالات ؛ فإن الله تعالى قد أمرهم بمثل ذلك الأمر صريحاً ، قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ولقد كان لهم في المسلمين الأولين أسوة حسنة ؛ فسيدنا عثمان رضي الله عنه بذل جل ماله لتجهيز جيش كامل في وقت كان المسلمون في ضيق وعسر . وكثير من المسلمين كانوا يأتون إلى رسول الله يحملون كل ما تملكه أيديهم من متاع ويقولون له : هذا ما تملكه أتينا به لينفق في سبيل الجهاد .

سار المسلمون الأولون على هذا المنوال من تضحية المال والأنفس والشهوات في سبيل العزة والكرامة ومقاومة الأعداء ، فأصبحوا بذلك سادة العالم يومئذ .

وياحبذا لو اقتدى بهم من بعدهم في هذا العمل الجليل ، وذلك الخلق الفاضل ، فإنهم لو فعلوا ذلك لظلت لهم شوكتهم قائمة ، وعزتهم باقية خالدة . ولكن من الأسف الشديد غلب عليهم حب الشهوات والأنفس والأموال ، فضاعت بذلك شجاعتهم الأولى ، واستمرءوا عيش الذلة والهوان ، فضنوا بما يصون كرامتهم ، ويحفظ لهم عزتهم التي كانوا عليها !

عبد الرحمن الجزيري

ذكري هجرة محمد

صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : « إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ . » وقال تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » :

للحوادث الجسام رنين قوى على الاسماع حين ورودها عليها ، إذ تحدث برناتها القوية على السمع تكيفاً للنفس ، وتأثيراً على الروح والعقل ، فتجعل السامع ينتقل بفكره من حالته العادية الى حالة السمو والارتفاع الى الدرجة التي تجعله في مستوى من شاهد تلك الحوادث وكان منها على مرأى ومشاهدة . وأعظمُ حادث عرفه التاريخ الاسلامي ، حادث الهجرة التي انطلق فيها محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر الصديق من مكة خفية ، إذ خرجا من دار أبي بكر في الثالث الأخير من إحدى ليالى الصيف قاصدين الى يثرب ، وقد كانا يعلمان حمارة القيظ ، وما تملطى به رمال الصحراء المحرقة الفسيحة في تلك الآونة من الزمن ، ولكنهما لشدة إيمانهما وقوة يقينهما ومنتهى تضحيتهما من أجل غايتهما ، نسيأ أهوال السفر ومتاعب السير ومشاق الرمال ، وهانت عليهما هذه الصعوبات المهلكة ، وتناسيا تلك الخطوب المدهمة ، نظرا لأنهما قد ارتفعت أرواحهما ، وصفت نفوسهما ، ورقت أفكارهما الى درجة جعلت غايتهما منحصرة في الوصول الى سلامة الدعوة التي حملها الرسول وآزره عليها صاحبه أبو بكر الصديق .

ولم يكن التفكير في الهجرة والباعث اليها وليد الأسابيع والأشهر ، بل هو وليد السنين والظروف القاسية ، والحوادث المتتابة ، التي أنبتتها الاحقاد والحسد في نفوس قريش ، وما خافوا عليه من زوال سلطانهم ، وعفاء عزمهم ، وانحاء سيطرتهم على أهل تلك الجزيرة ، وذلك لأنهم كانوا حراس الكعبة ، وبسندهم مقاليد البيت الذي تحج اليه العرب جميعها ، ويفدون اليه من كل صوب ؛ فإذا تفكير محمد في الهجرة وبحنه عن مكان يبيت فيه الدعوة قد جال بنفسه عقيب البعثة ، عند ما نزل عليه قوله تعالى : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ، عند ما دعا أهله وعشيرته ليتخذ منهم عوناً على نجاح دعوته وإبلاغ رسالته ، فما كان منهم إلا أن سخرُوا منه ، وكانوا حرباً عليه وعلى ما جاء به من الدعوة الى عبادة الله وحده ، وترك السجود لغيره ، وورثوا عبادتها عن آبائهم ، وكانت ينبوع المجد والفخار عندهم .

ولقد أخذ التفكير في الهجرة يزداد في نفس محمد يوما بعد يوم ، فكلمها وجد من أهل مكة إعراضا عن دعوته ، ومعا كسة لها ، ازداد تفكيره واشتد بحثه في إيجاد بقعة صالحة يفرس فيها شجرة الإيمان ، ويثبت فيها أصلها ويعلو فرعها ، بعد أن اشتد بأسه من إسلام أهل مكة ومن جاورها ، وبعد أن ردت ثقيف حين ذهب إلى الطائف يلتمس من أهلها الظهير والمعين ، فما كان منها إلا أن أغرت به سفهاءها وصبيانها للسخرية منه ، والاستهزاء بما دعاهم إليه ، حتى لقد بلغ به اليأس والقنوط ؛ فجلس بعد جهد سفهاء قريش له عند حائط لعنبة وشيبة ابني ربيعة يحتمى به من عبث السفهاء وسخرية الأغبياء من أهل ثقيف ؛ ولقد جالس إلى ظل شجرة من غنب وابنا ربيعة ينظران إليه وإلى ما هو فيه من شدة الكرب وظلمة الدنيا في وجهه وضيقها عليه على ما هي به من رحابة وسعة ، حتى لقد دفعته هذه الحادثة إذ ينس من النصير والمعين إلى أن يرفع أ كف الضراعة إلى الله تعالى ، ويفوه بقوله عليه السلام : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ، ولكن مقبتك أو سع لي ! أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » !

ولم يكن نصيب محمد من ثقيف بأكثر مما كان نصيبه من كندة وكتب وبنى عامر وبنى حنيفة وغيرها من قبائل العرب التي اشتد أذاها وخش قولها له ، فقد قل نصيره ، واشتد أعداؤه ، حتى بلغ التفكير بهم إلى العمل على إيمانه مع من تابعه جوعا ، وكتبت بذلك صحيفة علقت في جوف الكعبة تتضمن قطع العلاقات بين محمد وأتباعه ، وبين سائر قريش ، حتى لقد حرموا البيع والشراء بينهم ، وتوعدوا من خالف تلك الصحيفة أو عمل على نقض حرف مما جاء بها بالندير الشديد والعذاب الأليم ، طمعا منهم في أن يعدل محمد عن الدعوة التي جاء بها ، ويبقى على سلطانهم وعزمهم وخافهم في تلك الجزيرة ، فكلمها فشلت قريش في مكيدة من مكائدها عمدت إلى مكيدة أخرى .

ولقد كانت آخر تلك المكائد ونهاية السهام التي توجهها قريش إلى محمد ، هو ذلك الاجتماع وتلك المؤامرة التي حدثت بدار الندوة ، إذ تشاوروا في أمر محمد وكيفية الخلاص منه والقضاء عليه ، واستراحاتهم من المخاوف التي ينتظرونها ، فأشار بعضهم بحبسه وتكبيله بالسلاسل والأغلال حتى ينحصر شره وتخمذ نار دعوته وينسأ أصحابه ؛ فعورض ذلك الرأي بأن أصحاب محمد لا يتركونه دون أن يخوضوا غمار حرب تصطبى نارها جزيرة العرب وتدور الدائرة عليها . وقال البعض الآخر : أخرجوه من مكة حتى تنقطع دعوته عن أهلها ويزول اتصاله بأتباعه ؛ فعورض ذلك الرأي أشد المعارضة لما كان يتوقعه المعارضون الذين

لم ينسوا بيعتى العقبة الصغرى والكبرى اللتين أبرمهما محمد مع أهل يثرب ؛ وكان المعارضون يعرفون شدة الوفاء والمناصرة من أهل يثرب الذين قالوا عند العقبة الكبرى ، وهم زملاء الأوس والخزرج ، قولة صدق يقدونها بالمال والولد والنفوس والنفيس : « بايعنا على السمع والطاعة فى عسرا ويسرا ومنشطنا ومكرهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » . فقد جال بخاطر المعارضين وطرفت آذانهم تلك المبايعة ، وما قطعت الأوس والخزرج على نفسها من مناصرة محمد ، والوقوف بجانبه ، والدفاع عن الحق الذى جاء به . كل هذه العوامل لم تغب عن أذهان هؤلاء المعارضين ، فاندفعوا لمعارضة هذا الرأى وقالوا : لا تخرجوه لأنه سيرجع عليكم مع أتباعه من أهل يثرب ، ويوقعون بكم شر البلاء وأعظمه .

وحينما عورض هذان الرأيان انبرى أبو جهل فى صلف وكبر وزهو ، لما عرف به بين أهله من قوة الشكيمة وشدة المعارضة والخصومة لمحمد وأتباعه ، وقال : الرأى أن نجتمع من كل قبيلة رجلا جليدا فيضربوه بأسيا فهم ضربة واحدة ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على محاربة قريش كلها ، فيرضون بأخذ الدية . فأنصاع السكل الى هذا الرأى ، وأخذوا يحبذونه .

وحينذاك صح العزم من الرسول صلى الله عليه وسلم على الهجرة ، حماية للدعوة ؛ وأمر على بن أبى طالب أن يبيت فى مضجعه ، وأن يتسجى ببردته ، فبادر على الى طاعته ، مع اعتقاده أن القوم يتربصون الفرصة لاقتحام الدار لقتل محمد ، ولكن عليا لم يعبأ بهذه المخاطر ، بل عزم على التضحية بنفسه افتداء لمحمد ودعوته ، وصحب النبي أبا بكر فى السير حتى دخلا غار ثور ، ولم يفتهما أن قريشا لا بد أن تطلبهما فى غداة اليوم الذى تركا فيه مكة ، وقد تحقق ذلك ، فإن قريشا ذهبت تطلبهما ، وحلقت حول الغار الذى استترا فيه ، وفى تلك اللحظة من الزمن اشتد خوف أبى بكر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا نزل قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه » .

ولما اطمانت نفسيهما من خوف قريش ، واصلتا السير حتى وصلا الى المدينة التى تهيأ للقاء أهلها ، واستعدوا جميعا من يهود ومشركين ومن آمن به من الأوس والخزرج ممن بايعوا بيعة العقبة الكبرى والصغرى ومن تابعه على الإيمان .

وهناك اشتد الزحام ، وخرج السكل يحتلى طلعة هذا القادم العظيم . وكان أول ما فكر فيه الرسول حينما دخل يثرب ، أن شرع فى بناء المسجد ، ومسكنه الذى يأوى اليه . وطبيعى من محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعل أول تفكيره بناء المسجد الذى يؤدى فيه الركن الأعظم من أركان دعوته ، والعماد القوي ، ألا وهو ركن الصلاة ، فانها عماد الدين وقوامه .

ثم فكر بعد ذلك في جمع كلمة أهل مكة، وإزالة ما بينهم من اختلافات من أجلها اشتدت الحروب وطال أمدها؛ فهو واجد أمامه الأوس والخزرج اللذين نشأت بينهما الحروب التي اختتمت ببعث، أكبر حرب عرفها الأوس والخزرج؛ ووجد أمامه اليهود تحتل بقاها كثيرة في المدينة وحوها، وتحتكر التجارة، وغير هؤلاء وهم المهاجرون الذين تبعوه في الهجرة وتركوا أموالهم وأولادهم بمكة. إذاً لا بد لمحمد من أن يعمل على جمع الكلمة ومحو أسباب الخلاف.

ولقد وفق إلى طريق يحقق له بعض ما أراد، وذلك هو طريق الإخاء بين المهاجرين والأنصار، فقد آخى بين نفسه وبين علي بن أبي طالب، وبين عمه حمزة ومولاه زبير، وبين أبي بكر وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي، وتأخى كذلك كل واحد من المهاجرين مع واحد من الأنصار إزاء رتب عليه الرسول أحكام إزاء الدم والنسب. وبهذه الوسيلة استطاع محمد أن يوحد بين المسلمين القاطنين بيثرب، واستطاع أن يقضى على الدسائس والوقيعات بين الأنصار والمهاجرين، واستطاع أن يجعل للحجرة في العقيدة منزلة محترمة لا يقدر أحد على مهاجتها، ولا يعذب صاحب الرأي ولا صاحب العقيدة من أجل المخالفة وترك ما ورثه من التقاليد وعبادة الأوثان.

وفكر بعد ذلك أن يوثق الرابطة بين المسلمين واليهود حتى يأمن من شرهم على الدعوة، فأبرم بينه وبينهم معاهدات حسن الجوار وعدم العدوان وتمكين الحرية، وبذلك استطاع النبي أن يتفرغ لبث تعاليم الإسلام، ويوثق الروابط بين المسلمين، ويزيد المودة بينهم والإخاء، بتعاليمه ومثله العليا التي كان يضربها لهم بأفعاله وأقواله، إذ يقول في بعض خطبه: «من استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشقعة من تمر فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها». وكان يضرب لهم الأمثال بتواضعه وزهده في الحياة، وما عليه من التقشف في المعيشة من مأكل وملبس ومسكن.

ولقد ظهرت تعاليمه واضحة جلية حينما سأله علي بن أبي طالب عن السنة التي يرتضيها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه فقال: «المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسى، والثقة كنزى، والحزن رفيق، والعلم سلاحى، والصبر ردائى، والرضا غنيمتى، والفقر نفى، والزهد حرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبي، والجهاد خلتي، وقرة عيني في الصلاة»

كل جملة من هذه الجمل تصلح دستوراً تبنى عليه أقوى الحضارات وأرقاها، إذ بالعقل وحده تستطيع الحضارة والمدنية أن تقوى دعائهما، فما بالك إذا انضم إلى العقل سلاح العلم؟ وما بالك أيضاً إذا انضم إليهما جميع هذه الصفات التي جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم من سنته وأصول تعاليمه، التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم في المدينة وما جاورها، مما أوقع الرعب في قلوب

اليهود ، وجعل قوتهم تضعف يوما بعد يوم ، ودسيستهم تشتد بين المسلمين دون جدوى ولا فائدة ، حتى لقد خيل إليهم أن يستميلوا محمدا ويعملوا على إخراجهم من المدينة موطن عزهم ومحط تجارتهم بدعوى أن الرسل جميعا قد استقر بهم الأمر ببيت المقدس ، فأولى بمحمد أن يترك المدينة وينزل بيت المقدس مهبط وحى الأنبياء ومحط تعاليمهم . وهناك فكر محمد مليا في القضاء على هذه المسكيدة ، وقلب وجهه في السماء مبتغيا إلى الله الوسيلة ، وفي تلك الآونة حقق الله مراده ، واختار طريق الخلاص من هذه الفتنة ، وأنزل عليه قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنؤلّينك قبله رضاءها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

وبذلك خاب رجاء اليهود فيما أملوا ، وتدين لهم فشل المسكيدة التي دبروها ، وتحطمت آمالهم فوق الصخرة التي وضعها الرسول لينبئ عليها تعاليمه ، ويثبت عليها دعائم الإيمان .

وبعد كل هذه المحاولات والقضاء عليها ، فكر محمد طويلا في مكة ومن ترك بها من أهله وعشيرته ، وفكر طويلا فيما صنعه قريش به من الأذى وما أذاقوه له ولأتباعه من العذاب والهوان ، وفكر أيضا في تمكين دعوته ونبأها في جزيرة العرب وما جاورها ، بل فكر فوق ذلك في محو الشرك والوثنية والعمل على توحيد الله والإخلاص له ، وحدد عبادته بما في قوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

هذا هو أساس التوحيد الذي دعا إليه ، ومن أجله آذته قريش ، ومن أجله طاردته ثقيف وكندة ، ومن أجله اجتمع المشركون في دار الندوة مؤتمرين على قتله ، ومن أجله ترك مكة ملتسما المدينة ، ومن أجله تحمل كل المضاعب وضحي بكل شيء .

ولم يترك الرسول أمر مكة وكفار قريش ، وكذلك لم يترك أهل مكة محمدا دون أن يعملوا على السكيد له ، وبذلك وقعت الغزوات بينه وبينهم ، من بدر ، وأحد ، وغيرها ، وحصل بينه وبينهم صلح الحديبية الذي نقضت قريش ما جاء فيه وما قطعت على نفسها من عهود . ولقد كانت نتيجة النقض أن لا يجد محمد بداً من القضاء على قريش ، وأن يضع الحد الفاصل ويقول الكلمة النهائية بينه وبينهم ، وذلك بأن يدخل مكة ويقرر مصير أهلها حتى يأمن شرهم ، وقد أعد جيشا عرمرما بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، وزحف به إلى مكة قاصدا فتحها دون إراقة دم .

ولما اقترب منها خرج إليه عمه العباس بن عبد المطلب ، وسفيان بن حرب ، وبديل ، وغيرهم يستطعمون قوته ومعداته ، وينظرون إلى ذلك الذي خرج من بلدهم مكرها مغلوبا على أمره بالأمس ، وإذ به يعود اليوم قويا فاتحا عزيزا مكرما يحمل راية الحق والدين الذي

دعاهم اليه ، فما كان منهم إلا المعاندة والخصومة . ولقد دخل أنصار الله الى مكة فلم يجدوا منها مقاومة ، اللهم إلا بعض مناوشات وقعت بين جيش خالد بن الوليد ومن لقيه من أهل مكة . ولما استقر المقام بمحمد صلى الله عليه وسلم أخذ يستعرض صحيفة الماضي والذكريات الالهية التي لحقته في هذه الامكنة من قريش ، والعذاب الذي ذاقه ؛ ولكن نفس مجد أعلى من أن ينتقم لنفسه ويثأر لها ، فقد شكر الله تعالى أن هياً له الرجوع الى هذا البلد الأمين مكة ، أم القرى ، ومهبط وحيه ؛ ثم أخذ يطوف بالكعبة التي تشوقت نفسه إليها ، ولم ينقطع تفكيره عنها . ولما قضى طوافه وقف على باب الكعبة وتكاثر الناس حوله ، فقام فيهم خطيباً يتلو عليهم كتاب الله ، ويبين لهم حدوده وتعاليمه ، وأوامره ونواهيه ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . ثم سألهم بعد ذلك فقال : يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء .

لقد عفا محمد صلى الله عليه وسلم عن الأعداء بعد أن ملك ناصية أمرهم ، واستولى على أرواحهم ، وأموالهم ، وما ذلك إلا لأنه قد وصل الى غايته ، وأدى رسالة ربه ، فليس في نفسه حفيظة أو غيظ ، أو حقد أو حسد ، لأن روحه العالية قد سميت فوق الحفيظة والغيظ ، والحقد والحسد .

من أجل هذا كله كانت الهجرة وبواعثها من الأمور الجسيمة التي تحول الاسلام بسببها من حالة الركود والمعارضة بمكة ، الى حالة النشاط والجد والعمل بالمدينة : وهكذا كان الضرر والأذى والعنت الذي لحق النبي صلى الله عليه وسلم بمكة حتى أجلاه عنها سبباً في الخير ، ونصرة الحق ، وإعلاء كلمة الله . وصدق الله وحقت كلمته حيث يقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليجعلن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » .

عبد الله مصطفى المراغى

وكيل قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نظرات في المذاهب المتطرفة

الشيوعية وسوء أثرها في الهيئات الاجتماعية

نظرنا في المقال السابق في الناحية الاقتصادية من الشيوعية ، وهي الناحية التي يحاولون أن يفتنوا الفقراء من قبلها ؛ وقد رأيت أن سيادة هذا النظام الاجتماعي يزيدهم فقرا على فقرهم ، وإذا تمادى بهم حل وحدتهم ، وآتى على جميع حوافظهم الاجتماعية . واليوم ننظر في هذا المذهب من ناحية مناهضته للدين ، وهي أخص ما تعنى به هذه المجلة :

عرف الدين موجد الشيوعية (كارل ماركس) الاسرائيلي الألماني في بعض كتبه فقال : « الدين عبارة عن تنهيدات الجماعات المظلومة » . يريد بذلك أن يقول : لو ارتفع الظلم عن هذه الجماعات لما وُجد الدين .

ويقول الدين يدعون الى هذا المذهب : « في كل مجتمع قائم على أساس الطبقات لابد للدين من أن يولد تحت تأثير النير الاقتصادي ، ويكون إحدى قوى الضمير الاجتماعي . أما عندنا فإن الشروط الاجتماعية التي كانت تنشأ عنها الأفكار والعقائد الدينية قد اضمحلت وأصبح الدين كائناً مبنياً لا تأثير له في الاقتصاد وفي النظام الاجتماعي » .

ونحن نبادر الى دحض هذه الآراء قبل الانتقال الى غيرها حتى لا يلتبس الأمر على القارئ : أما قول مؤسس الشيوعية : إن الدين هو تنهيدات الجماعات المظلومة ، فهي عبارة شعرية ليس فيها عبقة من علمي النفس والاجتماع ، فقد ثبت أنه يستوى في عاطفة التدين المظلومون وغير المظلومين ، بل ثبت أن غير المظلومين من كبراء الأمم وأثريائها وسراتها ، أكثر تدينا من رعاها وغوغائها ؛ وقد تقرر أن منهم من تنازلوا عن عروشهم وخرجوا عن أموالهم تورعا وتزهدا ؛ وفي الأرض اليوم جماعات غير مظلومة تعيش في ظلال الديمقراطية الوارفة الظلال ، أشد تمسكا بدينها من الأمم التي تعتبر في عرف الشيوعيين مظلومة .

وأما قول أشباع الشيوعية من أن كل مجتمع قائم على أساس الطبقات يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادي ، فغير صحيح ؛ فقد ثبت علميا أن الدين تُولد في الجماعات الأولية الساذجة ، قبل أن يعرف نظام الطبقات فيها ، بل قبل أن يكون لها جماعة بالمعنى المعروف اليوم . أعني بهذا أيام كان كل إنسان يعمل لنفسه ولا يسأل عن غيره ، ويجهل النظم الاجتماعية كل الجهل . فاذا كان الشيوعيون يلاشون كل النظم المعروفة فلا يؤمنون من وراء ذلك أن يسقطوا سلطان الدين ، لأنه لا يستمد هذا السلطان من جوع الجماعات ، ولا من وقوعهم تحت برائن

القادة الظالمين ، ولكنه يستمد من أشرف عواطف النفس ، وأكرم غرائز العقل . وقد عرف بالمشاهدة أن الانسان إذا كانت قواه مستوعبة في طلب القوت ، ومحاولاته وقفا على فتق الحيل للوصول اليه ، ضعف سلطان الدين عليه ، ولم يجد وقتا للنظر في نفسه ومصيرها ، وحياته وينبوعها ، ولا للفكر في آدابه ونظامها ، وسيرته وقوامها ؛ وكثيرا ما أداه شظف العيش الى الكفر . هذه حقائق يمكن الاهتداء اليها بالمشاهدة ، فانك حيث تصادف الفاقة والعُدْم تجد خمود الشعور ، وهمود العواطف ؛ وحيث تؤانس اليسار والخفض ، تلبى التوق للسمو الأدبي ، والحنين لاختراق حجب الغيب لتنور الأسرار العلوية . وهل الدين في حقيقته غير الانتهاء الى المثل العليا في الأدب النفسى والمعرفة ؟ وأين هما من الجائع المكدود ، والمعدم اللاصق بالتراب ؟

فان تخيلت كأننا ميتا نسميه الدين ، فهو عند الجماعات المنكودة الحظ ، الواقعة تحت كلا كل الظلم ، لا عند الجماعات التي نالت حظها من الرغد ، وفرغت من هموم الكد ، ووجدت عقولها وقتا للنظر والتأمل ، واستعدت نفوسها للترقى والتكامل . ويقول أنصار الشيوعية :

« إن بقاء المعتقدات الدينية يقوى بواسطة السلطة الإلهية والدينية جميع النزعات الرجعية في أفكار الناس ، ويستبقى العادات القديمة ، ويمرر الميول العدوانية نحو النساء ، ويخلق شريعة العبودية والتعصب ، ويوطد أصول الرأسمالية » .

نقول : من حسن الحظ أن الذين يقومون بهذه الفلسفة هم في أوروبا لا في مجاهل أفريقيا ، ولا في سهوب الأقيانوسية ؛ وليس في العالم مظهر أروع ، ولا مشهد أكل ، من الأمثال التي تضر بها شعوب أوروبا في التخلص من النزعات الرجعية ، والوراثات التقليدية ؛ وفي تحرير النساء ومنحهن حقوقهن الطبيعية ؛ وفي تحطيم أغلال العبودية ؛ وفي تلطيف سلطان العصبية ، وتمديد الاصول الرأسمالية ، لتوافق المصالح الاقتصادية ، ولا تتحيف حقوق الضعفاء في الهيئة الاجتماعية .

لا أظن أن عهدا من عهود البشرية تجلت فيه روح الإنشاء والتجديد في كل مجال من مجالات النشاط العلمى والاقتصادى والاجتماعى ، مثل تجليها في الغرب في القرنين الأخيرين : فقد تطورت العلاقات بين الحكومات والشعوب ، وبلغت أرقى ما يمكن أن تبلغه من النقة بين حاكم ومحكوم في هذه الحياة الأرضية .

وتهذبت الصلات بين أصحاب الأموال والعمال ، حتى اعتبر العمل ورأس المال عاملين متساويين في الحقوق ، فلم يعد العامل مستعبدا لصاحب المصنع ، ولا عالة عليه ، ولكنه

شريكاً له في الإنتاج . لذلك اعترفت له الحكومات بالنقابات التي تضمن حقوقه الطبيعية ، وتميمن على مصالحه الاقتصادية ، وسمحت له بالدفاع عن تلك الحقوق والمصالح بكل ما تسمح به لسواه في حدود النظام .

واندفعت تلك الأمم في ميدان الترقيات المادية والروحية طليقة حرة ، زارية بالرجعية والرجعيين ، والتقليد والمقلدين ، حتى كادت تقطع الصلة بين القديم والحديث .

وبالغت في تحرير النساء حتى اتهمت بمحاباتهن ، وبث روح التمرد في قلوبهن ؛ وليس بعد هذه الدرجة من مزيد إلا إذا أريد قلب الأوضاع الطبيعية بجعل الرجال تحت قيادة النساء ، وليس هذا من الإصلاح في شيء .

فلا أدري بعد هذا كله معنى لتبجح الشيوعية بمبادئها الجديدة ولم تبلغ الجماعات التي أخذت بها بعض ما بلغته الأمم التي نذكرها ، وكان المعقول أن تعطى العالم مثالا في تفوقها ، وفي سرعة تطورها ؛ فأى سبق تدعيه عليها ، وأى تخلف عنها تعيرها به ، وهي لا تحفظ وجودها في عقر ديارها إلا بسيف القهر ، تقطع به وتين كل من تحدته نفسه برفع نيرها عن طائفة ؛ وتلك الأمم تعيش في مجبوحة الحرية ، لكل منها الحق أن تنتقد حكومتها ، وأن تسقطها وتقيم سواها متى تعدت إرادتها ، لا تعرف حكم الإرهاب ولا يعرفها ، سلطانها الإجماعي فوق سلطان أحادها ، رضيت بهذا الحظ الموفور من كرامتها ، واتجهت لبلوغ غايات المثل العليا بالعلم والعمل على سجيبتها .

لعل الذي أطال من لسان الشيوعية ضد الدين الى هذا الحد ، أن عامة الأمم وجهلتها لا يزالون يدينون بانحرافات العتيقة ، ويحافظون على ضلالات الأولين لا يريدون عنها حولا ، ولكن أصحاب البصر من تلك الأمم يرون ذلك ويدأبون على إصلاحه بوسائل نلائم الطبيعة البشرية ، من طريق ترقية مداركهم ، ورفع مستوى عقليتهم ، كل ذلك مع عدم العدوان على العاطفة الدينية التي اعترفت الفلاسفة أنها من لوازم الفطرة البشرية ، وأنها لا تركازها على أرفع مميزات النفس لا يمكن ملاشتها إلا بأسقاط الإنسان الى حضيض الحيوانية ، وإلهائه عنها بالمطالب الجسدية ، وهو جهد محكوم عليه بالضياع ، لأن الفطرة الانسانية تعود فتتنبه للنظر في ذاتها وعلاقتها بالوجود ، فتستيقظ العاطفة الدينية من سباتها ، وتبحث عن مقوماتها من العقائد والتقاليد . فاذا أصر الشيوعيون على مقاومة هذه الميزة الفطرية في النفس البشرية بالقوة ، أدام ذلك الى ارتكاب ضروب من العسف تترفع أية حكومة متمدنة عنه .

ولكن لم هذا العداء كله للدين ؟

لو كان كل أمة ذات دين تزح تحت كلا كله ، ولا تنتعش من كبوتها حتى تتخلى عنه . كان للشيوعيين عذر في العمل على ملاشاته في جماعاتهم ، ولكن المشاهد أن الدين لم يمنع ارتداء

الأمم الى أرفع درجات المدنية في خلال العهود الانسانية كلها ، بل شوهد أن منها من لم ينهض بعد جمود طال عليها العهد فيه إلا على يد دين ، كالامة العربية ، فقد نثت فيها الاسلام روحا عالية ، فأسست أعظم دولة عرفها تاريخ البشر ، وبلغت من المدنية الى أوج لا يزال مضرب الأمثال الى اليوم ؛ وهذه الأمم المعاصرة لم تمنعها أديانها ، ولا أوهام عامتها ، من بلوغ الغايات البعيدة من العلم والفلسفة والمدنية . ذلك لأن هذه الأمم الحرة الرشيدة بدل أن تقيد حرية الضمائر ، وتنشئ الحكوماتها كبيرا من هذه الناحية ، يدفعها الى ضروب من التعسف ، قطعت ما بين الحكومة والكنيسة من الاتصال ، فاقنصر سلطان العقائد على الحيز الشخصي ، واتسع للمجتمع بمجملته مجال التطور والارتقاء غير مقيد بقيد ، فلم يقف في توثباته عند حد .

فالمذهب الشيعي لم يكفه أن تتولى حكومته توزيع الأرزاق على الأفراد ، وتقييد حريتهم في الاستثمار والادخار ، فحول نفسه فوق ذلك الحق في تقييد عقولهم ، وحصرها في دائرة يحدوها لهم . وهذه سيطرة لم ترضها الانسانية من قادة الدين أنفسهم ، فبذلت في سبيل التخلص منها أرواح أبنائها ، مع أنهم كانوا يريدون أن يمسكوها في دائرة العقائد الدينية التي تقدسها ولا ترى لها حياة بدونها ، فهل تقبلها من قادة الشيوعية وهم يرمون الى ملاشاتها ، والتغفية على آثارها ؟

إن الطبيعة البشرية قد أثبتت السيطرة كما رأيت فيما تهوى ، فهل يطوف برأس متخيل أنها تقبلها فيما لا تهوى ؟

فهذا التورط الشنيع الذي تتكلفه الشيوعية وتحتفظ به في سبيل عرم من دماء البشر ، في سبيل اجتثاث جرثومة الدين من قلوبهم ، لا يعقل أن يدوم ولو حققت لهم حلم الفردوس الأرضي ، فليس الانسان بالكائن الذي إذا امتلأ بطنه بالطعام اكتفى بذلك ولم يعد يسأل عن علاقته بالوجود ، ولا عن المثل الأعلى للحياة ، ولا عن مصيره بعد الموت ، ولا عن غذائه الروحاني الذي يحس بحاجة الماسة اليه . فالشيوعية تريد الانسان على أن يكون حيوانا لا تبعد همته عن محيط كبرشه ، وقد خلق إنسانا لا تقطعه الدنيا عن البحث في حقيقة نفسه ، وعلة وجوده ، وعلاقته بمبدعه . وهل الدين غير هذه الميول الفطرية فيه ؟ فإذا كان من المحال تغيير الفطرة ، فمن المحال كذلك هدم الدين ؟

محمد رفيع وجري